توظيف "الأنثروبولوجية الدينية" في دراسة السنة النبوية

– عرض ونقد–

الدكتور: محمد رمضاني.

أستاذ محاضر

تخصص: السنة وعلومها

كلية أصول الدين، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية.

قسنطينة_ الجزائر.

ملخص البحث:

تتناول الورقة بالعرض والتحليل النقدي إحدى أهم المسالك الحديثة في دراسة السنة النبوية، والتي تتردد كثيراً في كتابات الخطاب العقلاني المعاصر في سياق التأسيس والتبرير لمشروعه الفكري الرامي إلى (إعادة نقد وقراءة النص النبوي)، هذا المسلك يتمثل في توظيف علم "الأنثروبولوجيا الدينية"؛ المهتم بدراسة المجتمعات الإنسانية وأنماطها الثقافية والاجتماعية والسياسية، ومدى تأثرها وتأثيرها في غيرها، إضافة إلى المؤثرات الكبرى في تشكل المعتقدات الدينية لتلك المجتمعات – لاسيما النصوص الدينية (النص النبوي هنا) –، بتحديد مواردها وروافدها، ويحاول الخطاب العقلاني المعاصر الاستثمار في مباحث هذا العلم في تفسير ظهور أبواب كاملة من الروايات الحديثية؛ لاسيما المتعلقة بالمعجزات والغيبيات وبدء الخلق وأخبار الأنبياء والأمم السابقة واللاحقة، وأحاديث الأشراط كالدجال والدابة، وأخبار الفتن والملاحم واليوم الآخر ... وغير ذلك مما يصادم ظاهره دليل العقل والحس.

ويمكن حصر أهم المباحث الأنتروبولوجية التي تم توظيفها في دراسة نصوص السنة في:

١- علم الأساطير.

٢- تسرب العناصر الدينية السابقة (الإسرائيلية والمسيحية ...) إلى السنة النبوية.

٣- تأثير الماقبليات الثقافية التي كانت سائدة لدى العرب قبل الإسلام.

٤- تأثير المخيال الديني في تشكل المرويات.

وتهدف الورقة إلى دراسة هذا التوظيف والوقوف على مدى استيفائه لشروط الموضوعية والعلمية .. وغيرها من شروط البحث العلمي، والموضوع منسجم مع أهم محاور المؤتمر إذ إنه يدرس إحدى التطبيقات المعاصرة للعلوم الإنسانية في دراسة النص الحديثي.

تمهيد:

من المسالك الجديدة التي انتهجتها بعض الاتجاهات الفكرية المعاصرة في دراستها ومقاربتها للنصوص الحديثية توظيف عدد من العلوم والمعارف الإنسانية في سياق محاولتها تفسير ظهور تلك النصوص – الدينية -وتزايد عددها وانتشارها، ولعل "الأنثروبولوجيا" - على وجه التحديد - إحدى أهم تلك العلوم التي سعت بعض الأقلام المنتمية إلى الخطاب العقلاني المعاصر إلى توظيفها والاستثمار فيها لتبرير موقفها من السنة النبوية، وهو موقف – في أغلبه – متسم بالرفضِ والارتياب في موثوقية نصوصها.

وقد جاء توظيف "الأنثروبولوجيا" بالتحديد كونها تهتم بدراسة المجتمعات الإنسانية وأنماطها الثقافية والاجتماعية والسياسية، ومدى تأثرها وتأثيرها في غيرها، إضافة إلى المؤثرات الكبرى في تشكل المعتقدات الدينية لتلك المجتمعات - لاسيما النصوص الدينية (النص النبوي هنا) -، بتحديد مواردها وروافدها ومرجعياتها؛ ولهذا فإنَّ الحديث عن "الأنثروبولوجيا" بصفتها أداةً معرفية يوظفها الخطاب العقلاني المعاصر في طروحاته البحثية؛ بناء على دعوى قدرتها الشاملة بصفتها علماً على تفسير كل الظواهر الاجتماعية والثقافية والدينية واختراقها لكل العلوم التاريخية والمنظومات التفسيرية والتأويلية؛ يحتم علينا نحن المتخصصين في الحديث النبوي وعلومه، والمدافعين عن محكمات الدين ومصادر الشريعة، أن نلمَّ بشطر من هذا العلم من أجل إبطال ذاك التوظيف من أساسه وبيان افتقاره للنجاعة من الناحيتين النظرية والإجرائية، وعلينا أن نعترف بأن هذا العلمَ خاصة والعلوم الإنسانية عامة بشكل عام تكاد تكون غائبة عن دوائر البحث في العلوم الشرعية[1]، في حين أنها تحظى بالاهتمام والعناية في الجامعات الغربية، والمعاهد ومراكز البحث المتخصصة في دراسة الأديان؛ دون أن نخفي أن اهتمام هذه المؤسسات قائم على دوافع إلحادية، وهي اعتبار الإنسان مسؤولاً عن إنتاج الأديان، والنظر إليه على أنه مصدر النصوص الدينية، ذلك أنَّ الدين في "الأنثروبولوجيا" التي هي (علم الجماعات البشرية وسلوكها وإنتاجها)[2] هو (نتاج تصورات ومفاهيم اجتماعية ثقافية)، وعليه فقد سعى الخطاب العقلاني المعاصر إلى الاستثمار في مباحث هذا العلم من أجل التشكيك في موثوقية السنة النبوية، وإرجاعها إلى مصدر غير إلهي، (الأديان السابقة مثلاً)، معتمدا بشكل كلي –كما سنوضح في البحث – على الطروحات

---

[1]- وقد أشار الدكتور أبو بكر باقادر إلى أهمية العلوم الاجتماعية وحاجة طالب العلم الشرعي إليها، وذلك في بحثه الماتع (حاجة طالب العلم الشرعي إلى العلوم الإنسانية)، الذي طبعه مجمع الفقه الإسلامي، وانظر كذلك: العلوم الإنسانية والاجتماعية المعاصرة وأهميتها لطالب العلم الشرعي، إسراء خضر لافي، ورقة مقدمة لمؤتمر (التعليم الشرعي وسبل تطويره)، جامعة النجاح الوطنية نابلس، تاريخ: ٢٠/٠٩/٢٠١٧م.

[2]- المدخل إلى علم الأنثروبولوجيا، شاكر مصطفى سليم، ص٠٧.

الاستشراقية، ذلكَ أنَّ "الاستشراق كان المصدر الأول للبدايات التأملية الأنثروبولوجية في الشرق الأوسط"[٣]، وكان – أي الاستشراق –يعد الإسلام مسيحية محرفة أو يهودية منحرفة[٤]، هذا بخصوص الاستشراق الكلاسيكي، أما الاستشراق المعاصر فقد كتب رواده (في العقدين الأخيرين مئات النصوص في نقد النص القرآني أو السنَّة النبوية أو السيرة النبوية، حيث صارت الدراسات الاسلامية في أكثر الجامعات الأميركية والبريطانية هواجس وتخمينات و"اكتشافات" في نطاق اللامفكر فيه من قبل؛ فوجود النبي محمد صلّى الله عليه وسلّم أقل ثبوتاً من الناحية التاريخية من وجود المسيح، والسيرة النبوية تقليد لسيرة موسى أو أنها حواشٍ على القرآن كُتبت بعد ظهور القرآن في القرن الثاني، والسنة مكذوبة كلُّها، وما عاد منها الى أوائل القرن الثاني مأخوذ عن اليهود والنصارى، والفقه الإسلامي في أصوله الأولى رومانيٌّ ويهوديٌّ ومحليٌّ، ولا علاقة له بالقرآن أو بالسنَّة ... فما دامت النصوص الواردة باعتبارها من القرن الأول، ليست مسجلة عندما قيلت على رق أو بردي او صخر، فمعنى ذلك أنها ليست قديمة أو منحولة ومتأخرة، أو أنه ينبغي التوقف من دون إثبات أو نفي)[٥].

وقد قسمت هذه الدراسة إلى تمهيد ومبحثين:

تمهيد: مفهوم الأنثروبولوجيا

المبحث الأول: أهم مباحث الأنثروبولوجيا التي تمَّ توظيفها في دراسة السنة النبوية

المبحث الثاني: نقد هذا التوظيف

تمهيد: مفهوم الأنثروبولوجيا.

تعريف الانتروبولوجيا: أو ما يعرف بالإناسة، أو علم الإنسان.

جاء في "معجم المصطلحات والشواهد الفلسفية": (هذه الكلمة من أصل يوناني، ويطلق لفظ anthropos على الإنسان، ومن ثم فإن المعنى الحرفي لكلمةأنثروبولوجيا هو علم الإنسان والدراسة العامة للإنسان، ومجال الأنتروبولوجيا مجال واسع، إذ إنها تهتم بدراسة الإنسان من الناحيتين الفيزيقية (الأنثروبولجيا الفيزيقية)، والثقافية (الأنثروبولوجيا الاجتماعية ...إلخ)، سواء في ماضيه أو في حاضره، والمقصود، عموما بلفظ الأنثروبولجيا هو دراسة الإنسان من حيث هو كائن حضاري)[٦].

---

[٣]- الصراع على الإسلام من الاستشراق والرحلات إلى أنثروبولوجيا المحترفين والمحليين، رضوان السيد، صحيفة الحياة، عدد: ١٤٦٤٣، ٢٠٠٣/٠٤/٢٧م.

[٤]- المرجع نفسه.

[٥]- المرجع السابق.

[٦]- معجم المصطلحات والشواهد الفلسفية، جلال الدين السعيد، ص٦٢.

ويعرفها "بروكا" broca: (بأنها دراسة الجماعة البشرية في مجملها، بتفاصيلها وعلائقها ببقية الطبيعة)[٧].

وعرفته "مارغريت ريد" بقولها: (الأنثروبولوجي يحاول وصف الخصائص الإنسانية والبيولوجية والثقافية للجنس البشري عبر الأزمان، وفي مختلف المناطق، ... ويبحث الإدراك العقلي للإنسان وابتكاراته ووسائل اتصالاته)[٨].

ويقول "لالاند" بعد سوقه لجملة من التعريفات بأن الأنثروبولوجيا هي جملة العلوم والتطبيقات المتعلقة بموضوع "الإنسان"، (من جهة طبيعته الفيزيائية والعقلية، ومن جهة ثانية في تطوره التاريخي وما قبل التاريخي، ... ويمكنها الاشتمال – بهذا المعنى – على كل علم النفس البشرية: الأخلاق، التاريخ، علم الفن وعلم الأديان ..)[٩].

وفي موسوعة "جوردن مارشال"[١٠]: الأنثروبولوجيا: (هي الدراسة الشاملة للثقافات والمجتمعات على امتداد العالم).

وخلاصة ما سبق إيراده من تعريفات أن الأنثروبولوجيا هي العلم الذي يدرس كل ما يتعلق بالمجتمعات الإنسانية، ومن جملة ذلك "الدين"، وهي في دراستها للمجتمعات، ترى أن كل مجتمع بشري يمر بمراحل تطورية منها المرحلة الدينية ="التوحيدية"، ومن نظرياتها كذلك أن الظواهر الدينية في كل مجتمع إنما هي رواسب من عهود سابقة[١١]، ومن هنا يمكننا – حسب التصور الأنثروبولوجي -فهم كيفية ظهور النصوص الدينية لدى كل حضارة أو عند كل مجتمع.

المبحث الثاني: عرض أهم مباحث الأنثروبولوجيا التي تمَّ توظيفها في دراسة السنة النبوية:

أولاً: مبحث "الأسطورة":

تعد الأساطير إحدى أهم مباحث علم الأنثروبولوجيا الدينية، وقد أوردها "كلود ريفيير" في الفصل الثاني من كتابه (الأنثروبولوجيا الاجتماعية للأديان)، مشيرا إلى علاقتها بالنصوص الدينية، ورمزيتها في الدلالة على المعتقدات الدينية، سواءً تعلق الأمر بالأديان التوحيدية أو الأديان الوضعية[١٢]، ومع كل ما تكتنفه لفظة "الأسطورة" من معاني نمطية مستقرة في الأذهان دالةٍ على (الخرافة، والخيال، واللاواقع،

---

[٧]- موسوعة لالاند الفلسفية، أندريه لالاند، تعريب: خليل أحمد خليل، ص٧٤،

[٨]- قصة الأنثروبولوجيا، حسين فهيم، ص١٣.

[٩]- المرجع نفسه، ص٧٥.

[١٠]- موسوعة علم الاجتماع، جوردن مارشال، ص٢٠١، وانظر: المعجم الفلسفي، مجمع اللغة العربية، ص٢٤.

[١١]- المرجع نفسه، ص٢٠٢.

[١٢]- انظر: الأنثروبولوجيا الاجتماعية للأديان، كلود ريفيير، ترجمة: أسامة نبيل، ص٩٥ وما بعدها.

واللامنطق ..)؛ فقد سعى الخطاب العقلاني المعاصر أن يوجدَ صلة ترادف بين هذا "المصطلح" وبين كثير من نصوص السنة النبوية، محاولاً تبرير هذه العلاقة المتوهمة بين "الأسطورة" و"النص النبوي"؛ عن طريق تقديم تفسيرات اجتماعية وثقافية لوجود أبواب كاملة من الحديث النبوي، تتلخَّصُ هذه التفسيرات في أنَّ الأساطير تسربت إلى المدونة الحديثية عبرَ التكرار اللاواعي للأجيال الإسلامية الأولى لقصص وأخبارٍ تمَّ خلطها بالعديد من العناصر الأسطورية الميثيَّة؛ متأثرة بنظرة التقديس التي يكنها المسلمون للإسلام ونبيِّ الإسلام؛ لتنتج لنا — في الأخير – نصوصاً وأحاديثَ خرافيةً مناقضة للعقل والحسّ والمنطق؛ نسبها الرواة المسلمون إلى النبي ﷺ، تفصِّلُ هذا الأحاديث أخبار (المعجزات، والملائكة، والشياطين، والجن، والجنة والنار، ... وغيرها من الغيبيات). وهذا الأمر يحدث مع كل الشعوب وفي كلِّ الثقافات، ولا يمكن استثناء المسلمين من هذه الفعل الاجتماعي، إذِ «الأسطورة ظاهرة إنسانية عامة يلاحظ المرء وجودها في معظم الثقافات قديماً وحديثاً، الأمر الذي جعل العلوم الإنسانية توليها جل اهتمامها»[١٣].

وقبل الخوض في تفصيل هذا الطرح، نجد من الضروري تقديم تعريف للأسطورة، في الوضع الأنثروبولوجي، ولابد مع ذلك من الإشارة إلى أن الاتفاق لم يقع على تحديد مفهوم دقيق لمصطلح "الأسطورة"؛ إذ إنها «واقعةٌ ثقافيةٌ بالغة التعقيد، يمكننا أن نباشرها ونفسرها في منظورات متعددة يكمل بعضها بعضا»[١٤]، وهذا يدفعنا إلى إيراد بعض تعريفات المتخصصين في هذا الميدان:

– يعرف عالم الأديان الروماني "ميرسيا إلياد[١٥]" الأسطورة بأنها: «تروي تاريخاً مقدساً؛ تروي حدثاً جرى في الزمن البدائي، الزمن الخيالي ... بعبارة أخرى تحكي لنا الأسطورة كيف جاءت حقيقة ما إلى الوجود، بفضل مآثر اجترحتها الكائنات العليا، لا فرق بين أن تكون هذه الحقيقة كلية كالكون ... مثلاً، أو جزئية كأن تكون جزيرة، أو نوعاً من نبات، أو مسلكاً يسلكه الإنسان أو مؤسسة»[١٦].

---

[١٣]– التراث الإنساني في التراث الكتابي، إشكالية الأساطير الشرقية القديمة في العهد القديم، روبير بندكتي، ص١٢٤.

[١٤]– مظاهر الأسطورة، ميرسيا إلياد، ترجمة: نهاد خياطة، ص٠٩ (بتصرف يسير)، وانظر: موسوعة أساطير العرب عن الجاهلية ودلالاتها، محمد عجينة، ص٦١.

[١٥]– ميرسيا إلياد Mircea Eliade: باحث وأكاديمي مجري متخصص في الميثولوجيا وتاريخ الأديان ولد في مارس سنة ١٩٠٧م،، أكمل تعلميه العالي في جامعة بوخارست، وشغل منصب أستاذ تاريخ الأديان في جامعة شيكاغو، توفي سنة" ١٩٨٦م. انظر: مظاهر الأسطورة، ميرسيا إلياد، (الترجمة في ظهر الكتاب).

[١٦]– مظاهر الإسطورة، ميرسيا إلياد، ص١٠.

- ويعرفها محمود كارم بأنها: «روايات خرافية تطورت من أجل تفسير طبيعة الكون ومصير الإنسان وأصول العادات والعقائد، والأعمال الجارية في أيامهم، وكذلك أسماء الأماكن المقدسة والأفراد البارزين»[١٧].

- أو بأنَّها: «القصة التي أنشأها الإنسان الأول لتصور ما وعته ذاكرة شعب، أو نسجه خيال شاعر حول حادث حقيقي كان له من الأهمية ما جعله يعيش في أعماق ذلك الشعب صحيحاً أو محرفاً، تمتزج به تفاصيل خرافية)»[١٨].

- في حين يرى بعض الباحثين بأن «الأساطير Myth /Mythos هي في الفهم الكلاسيكي مجموعة خرافات وأقاصيص، وهي اشتقاق من (سطر الأحاديث)، وموضوعها — إضافة للآلهة- يتناول الأبطال الغابرين وفق لغة وتصورات وتخيلات وتأملات وأحكام تناسب العصر والمكان الذي صيغت فيه، وشكل الأنظمة، والمستوى المعرفي وهي في الوقت ذاته تشكل ثقافة عصرها، بحيث تبدو ذات خصوصية تربطها ببيئتها ومجتمعها، بحيث يمكن من دراستها استقراء التاريخ الأصدق لزمنها ومكانها»[١٩].

من خلال النظر في هذه التعريفات نخلصُ إلى أنها تصبُّ في كون "الأسطورة" مرادفة للخرافة والقصة الباطلة، نتجت من خيال الشعوب وتأملاتها وتصوراتها، وتتناول قضايا وثيقة الصلة بذاكرة تلك الشعوب، وتمتزج فيها الحقيقة بالتفاصيل الخرافية.

وبالعودة إلى محاولات الخطاب العقلاني المعاصر الاستثمار في الأنثروبولوجيا وتوظيفها كأداة للتشكيك في نصوص السنة النبوية أو حتى إلغائها بالكلية، يمكن أن ندعي أن ذلك بدأ في الكتابات العربية مع الأديب العراقي معروف الرصافي من خلال كتابه (الشخصية المحمدية أو حل اللغز المقدس)، الذي نسب فيه أكثر مرويات السيرة النبوية إلى أساطير قديمة أقحمها الرواة والمحدثون الأعاجم في المدونة الحديثية.

والكتاب الثاني من حيث الأهمية في نظري، والذي أصل فيه صاحبه لهذا الطرح، هو(الأسطورة والتراث) لسيد القمني، حيث بناه على تساؤل محدد وهو: «هل جاء الإسلام - المرتبط بالعروبة - بالضرورة بقطيعة معرفية مع الأسطورة)[٢٠]، فهو يستند إلى الآثار السومرية والفرعونية التي عُثر عليها في

---

[١٧]- أساطير العالم القديم، صمويل نوح كريمر، ترجمة: أحمد عبد الحميد يوسف، ص٠٧ وانظر: قاموس أساطير العالم، آرثر كورتل، ترجمة: سهى الطريحي، ص٥-٧.

[١٨]- أساطير العالم القديم، محمود عبد العزيز كارم، ص٢٢.

[١٩]- الأسطورة والتراث، سيد القمني، ص٢٥.

[٢٠]- الأسطورة والتراث، القمني، ص٢٧.

كل من العراق ومصر، والتي تحوي رموزاً ورسومات تشير إلى جملة من القضايا الدينية المشابهة لما دلّت عليه النصوص الإسلامية — ومنها الحديث النبوي-؛ وهو بهذا يقرر أن الإسلام استلهم من الميراث الأسطوري لهاتين الحضارتين؛ شأنه في ذلك شأن الديانة اليهودية والنصرانية اللتان لم يبرئهما — القمني- من هذا الاستلهام، وشحن -في سبيل تعزيز رأيه هذا- كتابه "الأسطورة والتراث" بعشرات الرسوم واللوحات الفنية والرموز التي خلفها القدامى، والتي تصور: قوى (الخير=الملائكة) بأجنحة[٢١]، الكبش دلالة على الأضحية[٢٢]، حواء، الحيَّة[٢٣] ... إلخ.

هذه النظرية شائعة في كتابات العقلانيين المعاصرين — بمختلف توجهاتهم -، وهم يشهرونها في كلِّ مناسبةٍ يريدون فيها إلغاءَ النصوص النبوية المتناولة لقضايا الغيبيات على وجه الخصوص[٢٤]، أينَ تدرج هذه النصوص ضمن دائرة الأسطورة بمفهومها "اللغوي" المرادف للخرافة، أو "الأنتروبولوجي" ذي المرجعيات الثقافية والاجتماعية والدينية، بسبب تضمن هذه الأحاديث لدلالات "لامعقولة".

في هذا السياق نجد "محمد أركون" يصف الأحاديث النبوية بأنها «مجموعات نصية مغلقة ذات بنية تيولوجية أسطورية»[٢٥].

ويرى كذلك ضرورة التمييز بين الأسطوري والتاريخي في قراءة سيرة النبي ﷺ «بتوضيح الروابط الكائنة بين المعرفة الأسطورية، والمعرفة التاريخية؛ من أجل أن نتجاوز في آن معاً الحكايات الأسطورية التي يقدمها التراث بصفتها حقائق تاريخية أو وقائع تاريخية ثابتة ... وقد كانت أول سيرة ذاتية عن النبي قد كتبها ابن إسحاق (١٥٠هـ-٧٦٧م) تحت اسم السيرة، وقد خلط فيها بين الأسطورة والتاريخ منذ ذلك الوقت »[٢٦].

---

[٢١]- انظر: المرجع السابق، ص٦١.

[٢٢]- انظر: المرجع نفسه، ص٦٦.

[٢٣]- انظر: المرجع نفسه، ص٢٤٤.

[٢٤]- الواقع أن العقلانيين المعاصرين أحالوا معظم الوحي (قرآناً وسنة) إلى مرجعيات أسطورية، ولم يقتصر الأمر على الحديث، يبرز الفيلسوف المغربي "طه عبد الرحمن" هذه القضية في كتابه (روح الحداثة)، ص١٨٣: فيقول: «يرى القارئ الحداثي أن مفهوم الوحي المتداول والموروث عن التصور الديني التقليدي لم يعد من الممكن قبوله، وينبغي أن نستبدل به مفهوماً تأويلياً يسوغه العقل بحيث يصرف عنه ما لا يعقل من الأخبار؛ على أساس أنها أساطير غابرة، كما يصرف عنه ما لا يعقل من العبادات على أساس أنها طقوس جامدة؛ ويقضي هذا التأويل المعقول للوحي حمله على معنى "الموهبة التي يختص بها الكائن"، إنساناً كان أو حيواناً أو جماداً، ثم حصر مضمونه في الجانب الأخلاقي والمعنوي».

[٢٥]- تاريخ الفكر العربي الإسلامي، محمد أركون، ص١٣٦، وانظر: من الاجتهاد إلى نقد العقل الإسلامي، محمد أركون، ترجمة: هاشم صالح، ص٢٠.

[٢٦]- الفكر الإسلامي نقد واجتهاد، محمد أركون، ترجمة: هاشم صالح، ص١٠١.

ومعيار الفصل بين (الأسطوري والتاريخي) هو الوحيد المخول – حسب أركون – للوصول إلى نص صحيح للسيرة، ذلك أن ابن إسحاق «راح منذ ذلك الوقت يحور في شخص النبي وشخصيته التاريخية، وينبغي أن ندرسها ضمن منظور منفتح إلى أبعد حد على مشاكل علم النفس التاريخي، أقصد [كما يقول أركون] مسائل الإدراك العقلاني والخيالي للماضي، ثم مسألة العلاقة مع التقديس أو الحرام، ومع المعجزة، ومع الطبيعي، وما هو فوق الطبيعي، ثم الحضور المهيمن للقوة الإلهية، ثم القدرة الخالقة للكلام، ثم التواصل مع الكائنات اللامرئية من ملائكة وجن وإله، ..إلخ»[٢٧].

ويقرر "أركون" أن عدم التمييز بين (التاريخي والأسطوري) أفرز نصوصاً منسوبة إلى السيرة لا تقبلها الثقافة الحديثة، ذلك أنها «لم تعد بقادرة على الانغماس في هذا الجو الذي تعده جواً سحرياً وخرافياً ولا واقعياً ولا عقلانياً وخيالياً وعجائبياً مدهشاً ومختلفاً وأسطورياً – بالمعنى غير الأنتروبولوجي للكلمة- وكل هذه المفردات التي عددتها تعبر عن رفض ثقافتنا لتلك العقلية التي سادت أزماناً طوالاً»[٢٨]، ويؤكد أركون بأنَّ (الذاكرة الجماعية للشرق الأوسط القديم) تعتبر من أهم موارد النصوص التراثية، أين تستمد منها غذاءها[٢٩].

وفي معرض الحديث عن مكانة الحديث في الفكر الإسلامي، وذكره لشروط قبول الرواية عند المحدثين؛ ثم نقده لهذه الشروط مبرراً ذلك بإغفال النقاد لشرط معقولية النص ومدى تناغمه مع المبادئ الشرعية التي أسس لها القرآن؛ وعدم مراعاة واقع النص الذي قيل فيه، يخلص "نصر حامد أبو زيد" إلى أن إغفال هذه الأمور كلها في نقد النص واستنطاق دلالاته أدى إلى تحوله إلى نص جامد المعنى والدلالة، وبالتالي: «يتحول النص إلى أسطورة عن طريق إهدار بعده الإنساني والتركيز على بعده الغيبي، الأمر الذي يفسح المجال لتساؤلات عقيمة عن طبيعة النص هناك، وعن شكله ونمط الخط المكتوب به، وهل تنطقه الملائكة بالعربية أو بغيرها، إلى آخر ذلك من أسئلة عقيمة يمتلئ بها الخطاب الديني الإعلامي بشكل خاص، ويتحول الواقع إلى "أسطورة" نتيجة لتثبيت المعاني والدلالات وإضفاء طابع نهائي عليها تأسيساً على مصدرها الغيبي، ثم محاولة فرض المعنى الثابت الأزلي المفترض على الواقع الاجتماعي الإنساني، والنتيجة الحتمية لذلك إهدار النص والواقع معاً، واستبدال الأسطورة بهما، وهكذا

---

[٢٧]- المرجع السابق، ص١٠١-١٠٢.

[٢٨]- المرجع نفسه، ص١٠٢ (بتصرف يسير جدا).

[٢٩]- المرجع نفسه، ص١٠٢.

يحكم علينا الخطاب الديني أن ندور حول أنفسنا في دائرة مفرغة، ويقضى من ثم بكيفية حادة على إمكانات استقطار الدلالات الممكنة والملائكة لوضعنا التاريخي والاجتماعي»[٣٠].

وهنا نقرأ مسلكاً آخر لتسرب الأسطورة إلى السنة النبوية؛ ليس باختراع نص خرافي مخالف للعقل ونسبته إلى المصدر النبوي؛ إنما بترسيخ التأويل النبوي للنص الثابت، وحمايته من أي قراءة مخالفة أو مغايرة مهما مضى الزمن وتغير الحال، وهي -حسب أبي زيد- عملية "أسطرة" للنص، بحيث يحاط بهالة من التقديس يحرم معها أي اقتراب من التأويل النبوي لهذا النص.

ونجد هذا الطرح كذلك عند "عبد الرزاق عيد" في وصفه لأحاديث أشراط الساعة والفتن والملاحم[٣١] بأنها «تكرر أساطير وجدت منذ البابليين، مرورًا بالمصريين واليونان لتعكس طفولة الوعي الإنساني، وهو يتأمل العالم برؤية غيبية تسعى لاكتناه معنى الوجود ونظامه من حوله»[٣٢].

والحقيقة أن تتبع النصوص المعاصرة في التنظير لهذه الفكرة مما لا يطاق، والغرض هو لفت نظر الباحثين إلى استغلال منظري العقلانية المعاصرة لمبحث الأسطورة أحد مباحث علم الإنسان، في مقاربتهم للسنة النبوية.

ثانياً: الماقبليات الدينية والثقافية:

خلاصة هذا الطرح هو: الزعم بأن السنة النبوية — في نصوصها العقدية والتشريعية -مشحونة بالعناصر اليهودية والنصرانية، وبالعوائد والتقاليد والقيم العربية، والتي اقتبسها المسلمون من هذه المصادر، واستلهموها من هذه المجالات، ثمَّ نسبوهَا إلى السنَّةِ .

فالمرادُ بالماقبليات الدينية: الموروثات الدينية السابقة للإسلام، والمنتمية — أساساً - إلى اليهودية والنصرانية المحرَّفتين، والتي يدعي الخطاب العقلاني المعاصر أنها تسربت إلى السنة النبوية بفعل الرواة المسلمين.

أمَّا الماقبليات الثقافية فنعني بها هنا: مجموعة التقاليد والعادات والتشريعات القبلية والاجتماعية، والرؤى والمواقف الفكرية، والقيم الأخلاقية، التي كانت سائدة في حياة العرب قبل الإسلام، والتي يرى الخطاب العقلاني أنها بقيت شديدة التأثير على "اللاوعي" العربي، مما أسهمَ في تشكّل عدة نصوصٍ منسجمة مع تلك العادات والقيم والأفكار؛ نسبت بعد ذلكَ إلى السنة النبوية.

---

[٣٠]- نقد الخطاب الديني، ص٦٠.

[٣١]- المرجع السابق، ص١٠٣.

[٣٢]- المرجع نفسه، ص١٠٠.

والمتابع للإنتاج الفكري المعاصر والمتناول لمحكمات الدين ونصوص الشريعة؛ يلحظ توظيف هذه النظرية في دراسة كثير من نصوص السنة النبوية، لاسيما النصوص المتناولة للقضايا الغيبية الماضية: كأخبار الأنبياء مع أممهم، والمستقبلية: مثل المرويات الواردة في أشراط الساعة والفتن والملاحم، وأحاديث الجنة والنار والشفاعة، والصراط، إضافة إلى أحاديث الخوارق والمعجزات، وكذا النصوص المتعلقة بشؤون المرأة؛ وغير ذلك مما يوهم ظاهره مناقضة العقل والحس، ومناهضة الدليل القرآني وروح الشريعة ومقاصدها وكلياتها؛ حيث تُنسبُ كثيرٌ من روايات هذه الأبواب إلى تأثير الماقبليات الدينية والثقافية على الرواة، متمثلة في الموروثات اليهودية والنصرانية، وكذا العوائد والأعراف والنظم الاجتماعية المعروف لدى العرب قديمًا.

ويمكن على سبيل التمثيل – لا الحصر – إيراد بعض النماذج على هذا التوظيف، ولنا كذلك أن نقرر بأنه ظهوره الأول في أدبيات هذا الخطاب برزَ في طروحات الكاتب المصري "إسماعيل أدهم" الذي كان يقرر بأن النصوص النبوية تتضمن موروثات ديانات سابقة أقحمت في السنة بفعل دس بعض الرواة المتأثرين بالإسرائيليات، ويتهم أبا هريرة رضي الله عنه بأن: «مجموعة الأحاديث التي رويت عنه، تكشف بصورة جلية أنه اعتمد على المصادر المسيحية في وضع الأحاديث، إذ النصرانية بآرائها وأساطيرها ومعتقداتها جلية في مجموعة أحاديثه، حتى أنه وضع على لسان الرسول بعض فقرات الإنجيل، ولم يتورع من أن يسند إليه الشيء الكثير من أساطير المسيحية»[٣٣]. وكان يزعم –كذلك – بـ«أن النظر التنقيدي لمجموعة الأحاديث المنسوبة إليه على أنه راويها؛ لا تترك مجالاً للشك في أنها أتت من المصادر اليهودية، ووضعها على لسان الرسول، ولم يفعل أكثر من ترديدها في التوراة؛ مستمداً مادته من الأساطير الإسرائيلية التي تجمعت بين دفتي العهد القديم؛ محاكة من حول الإسرائيليات التي في تضاعيف القرآن»[٣٤].

وبتتبع السياق التاريخي لهذا الطرح نجده كذلك ماثلاً في كتابات "محمود أبي رية"، حيث كان كثير الاتهام لمسلمة أهل الكتاب أمثال "كعب الأحبار" و"وهب بن منبه" بدس الإسرائيليات، ونسبتها إلى النبي صلى الله عليه وسلم[٣٥].

أما في هذا العصر؛ فإنَّ الزعمَ بأنَّ المدونة الحديثية مشتملة على كثير من الماقبليات الدينية والثقافية حاضر في كتابات عدد من أعيان الاتجاه العقلاني المعاصر، كـ"أركون" الذي يقرر بأن نصوص التراث

---

[٣٣]- .قضايا ومناقشات، إسماعيل أدهم، ٣/٢٣٠.

[٣٤]- المرجع نفسه، ٣/٢٣٣.

[٣٥]- أضواء على السنة المحمدية، محمود أبو رية، ص١١٨.

«تستمد غذاءها – في آنٍ معاً – من الذاكرة الجماعية للشرق الأوسط القديم، ومن التعاليم الكبرى المبثوثة في المحيط من قبل أهل الكتاب – أي اليهود والمسيحيين – ومن التراث الحيّ للشعب العربي خصوصًا في منطقة الحجاز – أي التراث الذي كان سائداً قبل الإسلام»[٣٦]، فلا عجبَ – والحالة هذه – أن تخلق هذه النصوص – حسب أركون دائماً- «جوًّا سحرياً، وخرافياً، ولا واقعياً، ولا عقلانياً، وخيالياً، وعجائبياً، مدهشاً، ومختلفاً، وأسطورياً – بالمعنى غير الأنتروبولوجي للكلمة – »[٣٧]؛ تأبى ثقافتنا الحديثة أن تقبله وتنغمس فيه[٣٨].

وفي موضع آخر يؤكد محمد أركون على قضية تأثير الماضي التاريخي والثقافي للشعوب المعتنقة للإسلام؛ في إنتاج نصوص ألحقت بالسنة النبوية ذلك «أن تاريخ الشعوب التي اعتنقت الإسلام وتنوعها، فرضت كثيراً من الأوضاع التي لم ينص عليها القرآن الكريم ولا الحديث، ولكي تدمج في السنة؛ كان لا بد من إقرارها؛ أي من إضفاء القداسة عليها، إما بحديث من الرسول ﷺ، أو بتقنية المحاكمة؛ أي القياس القانوني»[٣٩].

ولا يختلف ما ذكره أركون عما قرره "محمد عابد الجابري"؛ من التأكيد على قضية «تسرب الإسرائيليات – وهي على العموم أخبار الغيب والجنة والنار المستقاة من التوراة والتلمود – إلى الثقافة العربية الإسلامية بشكل واسع وإلى داخل دائرة المعقول العربي ذاته»[٤٠].

وفي هذا السياق دائماً يشير "عبد المجيد الشرفي" عند حديثه عن معجزات النبي ﷺ إلى « أن عدداً منها ليس إلا صدى مضخماً لمعجزات منسوبة إلى الأنبياء السابقين»[٤١]، أما الماقبليات الثقافية التي كانت معروفة لدى العرب في الجاهلية؛ فأصداؤها بادية في الكثير من الأحاديث النبوية الشريفة، يقرر "الشرفي" هذا، رغم إقراره أن هذا غير منسحب على كل المتون المنسوبة إلى النبي ﷺ، إذ إنَّ بعضها «ذخيرة تنبض بالحياة، موحية بالمواقف النبيلة الخالدة، ولكن هذا الكنز يحتوي على الغثّ والسمين، وعلى الأخضر دومًا واليابس الذي فارقته الحياة، وعلى ما هو صدى لقيم المجتمعات التقليدية وما هو صالح في كلّ الظروف والأحوال .فهو إذن في حاجة أكيدة إلى المساءلة وإلى المرور عبر الغربال الدقيق .

---

[٣٦]- الفكر الإسلامي نقد واجتهاد، أركون، ص١٠٢.

[٣٧]- المرجع السابق، ص١٠٢.

[٣٨]- المرجع نفسه، ص١٠٢.

[٣٩]- نافذة على الإسلام، محمد أركون، ص٨٠.

[٤٠]- تكوين العقل العربي، محمد عابد الجابري، ص١٤٧.

[٤١]- الفكر الإسلامي في الرد على النصارى، الشرفي، ص٤٧٥.

ولا مناص في كل الحالات من عرضه على محكّ النقد المستنير بتوجّهات الرسالة، بعيدًا عن التقديس وحرفية النصوص، فذاك بلا مراء هو شرط بقائه حيًا في النفوس»[٤٢].

وتبلغ المجازفة بـ "حمادي الذويب" ذروتها حين يجعل الماقبليات مستغرقةً لمفهوم "السنَّة" -كلها- فيقول: «ويبدو أن معنى الاتباع تنامى مع الزمن حتى أصبحت السنة تمثل مجموع العادات والتقاليد والأعراف الموروثة عن الماضي، والتي تتبع مثل القوانين .. وأصبحت هكذا كل الأعمال في الحاضر تقاس بمدى موافقتها لهذه السنة، المصدر الأوحد للشريعة، التي يعد اطراحها خطأ جسيماً، مما جعل السنة تشكل عائقاً هائلاً أمام كل تجديد»[٤٣].

وعلى غرار الفرى التي رمى بها أبو رية كلاً من أبي هريرة وتميم الداري رضي الله عنهما؛ يحمِّلُ "عبد الرزاق عيد" عبد الله بن عباس رضي الله عنهما جريرة إقحام العديد من الأساطير اليهودية في أثناء السنة النبوية، ويدعي «اعتماده [أي ابن عباس] - فيما اختلق - الأساطير الإسرائيلية، وما اتصل بها من الميثولوجيا القديمة، ولم يكن اختلاق ابن عباس للحديث إلا نتيجة لإدراكه احتياجات عصره ... وقد كان عبد الله بن عباس في عمله صورة من آباء النصرانية الأول في أعمالهم في تاريخ المسيحية، فإنهم شحنوا تاريخ المسيح بمجموعة من الأساطير اليهودية، ولم يكتفوا بذلك بل **وضعوا على فم المسيح الشيء الكثير من الأمثال الإسرائيلية**»[٤٤].

ولا تقتصر الماقبليات الدينية التي يُزعم أنها مسؤولة عن تشكيل وخلق نصوصٍ منسوبة للنبي ﷺ على الديانتين اليهودية والنصرانية؛ بل إننا نجد ضمن الخطاب العقلاني المعاصر من يقرر بأن ما يسمى السنة النبوية مشتملة على «قصص من التراث المندائي والمجوسي والهندي والإغريقي، ومن كل تراث»[٤٥].

---

[٤٢]- الإسلام بين الرسالة والتاريخ، عبد المجيد الشرفي، ص١٨٢، وانظر: حقيقية الحجاب وحجية الحديث، محمد سعيد عشماوي، ص٩٣.

[٤٣]- السنة بين الأصول والتاريخ، حمادي ذويب، ص٢٩. وقد طبق بعض الحداثيين هذه النظرية على النص القرآني أيضا، فمثلاً نجد الطيب تيزيني يقول في كتابه (النص القرآني أمام إشكالية البنية والقراءة)، ص٢٥٦/٢٥٧: «إن الوضعيات الاجتماعية المشخصة في المجتمع العربي بما انطوت عليه من سمات ومطالب اجتماعية واقتصادية وسياسية وثقافية .. إلخ هي التي تدخلت في عملية خلخلة النص القرآني وتشظيه وتوزعه بنيويا ووظيفيا في اتجاهات طبقية وفئوية وأقوامية لإتنية متعددة. وقد أتى ذلك على نحو ظهر فيه هذا النص معادا بناؤه وفق قراءات متعددة محتملة تعدد تلك الاتجاهات وحواملها المجسدة بالوضعيات المذكورة إياها».

[٤٤]- سدنة هياكل الوهم، عبد الرزاق عيد، ص٢٣٢.

[٤٥]- الحديث والقرآن، ابن قرناس، ص٠٨.

ويرى مصطفى بوهندي[٤٦] بأنَّ مقولة: السنة وحي مثل القرآن «أعطى لمرويات الحديث دور الهيمنة على الكتاب، وهو ما أدى إلى تمرير مجموعة كبيرة من العقائد والشرائع والمفاهيم والأفكار ونسبتها إلى الإسلام، وخصوصاً الإسرائيلية منها والمسيحية، بدعوى أنها وحي من الله إلى رسوله، وأنها تفسير نبوي لآيات قرآنية معينة. والحقيقة غير ذلك، فلا بينها وبين الآيات المفسرة علاقة، ولا هي وحي من السماء، ولا هي تفسير نبوي، وإنما حملته الثقافة العربية الإسلامية من بقايا الثقافات الإنسانية؛ فصبغ بصبغتها الدينية، ونهج مناهجها العلمية، وقدم إلى العالمين على أنه من الدين القويم»[٤٧].

وجديرٌ بالإشارة هنا – أيضاً – أن هذه النظرية حاضرة في كتابات بعضِ المنتسبين للاتجاه الإسلاميِّ ممن يرى حاكمية القرآن على النص النبوي؛ حيث يرى هؤلاء أنَّ اليهود «ارتضت بما دون تحريف النص القرآني ... فعمدت إلى الولوج من باب التفسير والتأويلات المختلفة، ودسّ المرويّات مستغلة التشابه الظاهر بين بعض قصص القرآن وقضايا الخلق والآخرة ومقابلاتها في التوراة، وكذلك القضايا المشتركة المتعلقة بالخلق والكون وأحوال الآخرة والدخول في التفاصيل الدقيقة التي شغفوا بها، وامتلأت أخيلتهم المريضة بها من محاولات التحريف والتغيير في خصائص الشريعة»[٤٨].

ومهما يكن من أمرٍ؛ فإن كثرة نصوص العقلانيين في هذه البابةِ مما يعسر نقله كله لكثرته، والغرض من نقل ما تقدم آنفا هو البيانُ بأن هذا التبرير ذائعٌ في تصرفات هذا الاتجاه إزاء النصوص النبوية؛ حيثُ يسوغون لأنفسهم استشكالَ وردّ جملةٍ وافرة من أحاديث الغيبيات والمعجزات – والتي قد يوهم ظاهرها مخالفة العقل والحسّ – بذريعةِ كونها نتاجاً للماقبليات الدينية والثقافية.

ثالثاً: المتخيل الديني:

والمراد بالمتخيل الديني في مفهوم الأنثروبولوجي هو «ما يعكس الآفاق الذهنية للأجيال الإسلامية الأولى، وتعبر عن تمثلها لكل ما هو خارق للعادة مما له علاقة بالعجيب والغريب وعالم الأسطورة»[٤٩]، وعلاقته بدراسة السنة هنا، أن جملة من المعاصرين وظف هذا المبحث في تفسير تشكل النص النبوي، ونسبَ نشوء الروايات النبوية وتزايد عددها بعد منتصف القرن الثاني الهجري إلى صناعة "خيال الرواة"،

---

[٤٦]- باحث مغربي وأستاذ مقارنة الأديان بجامعة الحسن الثاني بالرباط، بالمملكة المغربية، من مؤلفاته: (أكثر أبو هريرة)، (التأثير المسيحي في تفسير القرآن).

[٤٧]- التأثير المسيحي في تفسير القرآن، مصطفى بوهندي، ص١١٥-١١٦.

[٤٨]- لا إكراه في الدين إشكالية الردة والمرتدين من صدر الإسلام إلى اليوم، طه جابر العلواني، ص٦٧، وانظر: جدلية الغيب والإنسان والطبيعة، أبو القاسم الحاج حمد، ص٥١.

[٤٩]- أسباب النزول، بسام الجمل، ص٣٨٣.

أو "المخيّلة الجماعية للأجيال الإسلامية" في عصور التدوين؛ فيكون "المتخيل الإسلامي=الديني" بهذا الاعتبار – لدى هذه التيارات – من أسباب تشكّل النص النبوي وظهوره، نافين أن يكون مصدره هو النبي صلى الله عليه وسلم نفسه، ويفسرون العدد الهائل من الأحاديث التي اشتملت عليه دواوين السنة بكونه إفرازاً للاَّوعي الجمعي لأجيالٍ من الرواة، وترجمةً لِتَمَثُّلّ المسلمين الأوائل لـ"المقدّس" وتصورهم إزاءه، وليس نقلاً صادقاً موثوقاً لما قاله النبي صلى الله عليه وسلم أو فعله أو أقرَّه.

يقول بسام الجمل: (لقد أسندت إلى الرسول عشرات الآلاف، بل قل مئات الآلاف من الأحاديث حوتها مجاميع الحديث من صحاح وسنن ومسانيد، تدور على عدّة أغراض منها الكلام على صور الفردوس والجحيم على غرار ما تشفّ عنه الكتب التالية ضمن تلك المجاميع: صفة القيامة (الصور...الشفاعة...الصراط...أواني الحوض)، صفة الجنّة (شجرة الجنّة...أبواب الجنّة...ثمار أهل الجنّة...)، صفة جهنّم. وهذه العيّنات هي من الأبواب المتواترة والمتكرّرة في مصنّفات الحديث النبوي وشروحها، ويظهر أنّ العلماءَ المسلمين استخدموا عدداً من الأحاديث في هذا الغرض لوضع مؤلّفات برمّتها تندرج في أدبيّات القيامة، من نحو "حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح" لابن قيّم الجوزيّة، و"التخويف من النار" لابن رجب الحنبلي، و"الدرر الحسان في البعث ونعيم الجنان" لجلال الدين السيوطي، و"دقائق الأخبار في ذكر الجنّة والنار" للقاضي أحمد »[٥٠].

ولا يمكن حصرُ مرجعيات المتخيّل الديني –عند منظّريه–؛ وإن زعمَ بعضهم أنها لا تخرج عن الثقافات العربية قبل الإسلام، وكذا الموروثات الدينية الوثنية، ونصوص التوراة والإنجيل، بل إننا بالكاد نستطيع ضبط مجالاتِه؛ إذ هي تتسع أحياناً لتشملَ الأحاديث الواردة في أسباب النزول، والتي أكد بعضهم بأنها (تندرج في باب المتخيل l'imaginaire مبحثاً من مباحث **الأنتروبولوجيا** الرمزية تحديداً)[٥١].

وأركون نفسه يقول: (نلاحظ تحويل الآيات التشريعية إلى سرد قصصي بواسطة تطور أدبيات أسباب النزول يفرض نوعا من التأطير الخيالي للآيات القرآنية التي تختزل عندئذ إلى نوع من الحرفية الزائدة عن الحد)[٥٢].

ويصف كتب أسباب النزول بأنها (ككتب قصص الأنبياء المنتشرة لدى القصاص الشعبيين تعيد بث الخارق للطبيعة والعجيب المدهش الخلاب داخل خطاب تشريعي مقطوع من سياقه الأسطوري الأصلي، ومفصول عن مقصده الأولي التاريخي والحيزي المكاني)[٥٣].

---

[٥٠]- المتخيل الإسلامي بحث في المرجعيات، بسام الجمل

[٥١]- أسباب النزول، بسام الجمل، ٣٧٥. وينظر كتاب "العجيب والغريب في كتب التفسير، لوحيد السعفي.

[٥٢]- من الاجتهاد إلى نقد العقل، محمد أركون، ص٨٠.

ويقرر في بعض كتبه (أن نموذج المدينة الأكبر ما هو إلا من اختراع المتخيل الجماعي لأجيال متتالية من المؤمنين الذين أسقطوا على الزمان والمكان التدشينين للدولة الإسلامية (٦٢٢-٦٣٢م)، الحضارة المتنمذجة والمثالية للسلطة العادلة والمقدسة والشرعية)[٥٤].

ويدعي أن التزايد – المزعوم- للأحاديث في القرون الأولى راجع أساساً إلى اختراع نصوص تجسد تمثل المسلمين لشخصية نبيهم وتستجيب لتقديسهم له، حيث يقول:(ونحن نجد معادلاً لهذه الفكرة في تعلق المسلمين بمثال أخلاقي أعلى لا يمكن تجاوزه، هذا المثال الذي كان قد تجسد في شخصية النبي صلى الله عليه وسلم أو صحابته ومن المعلوم أن الأحاديث النبوية ما انفكت تتزايد وتنتشر طيلة القرون الهجرية الثلاثة الأولى، وهي تعبر عن مجمل القيم الأخلاقية الدينية المعظمة والمبجلة من قبل مختلف الفئات الاجتماعية في أوضاعها الحياتية المتنوعة، كما أنها مسقطة على النماذج المثالية المقدسة للسلف الصالح)[٥٥].

وفي هذا السياق حاول بعض العقلانيين دراسة المتخيل في الروايات التفسيرية، بزعم أن الهدف هو (الإحاطة بخصائص التفكير والمخيال في الثقافة العربية الإسلامية في جانب من جوانبها المسكوت عنها) وقرر أن (عالم العجيب والغريب ليس في نهاية الأمر شيئا آخر غير تصَوُّرٍ للمخلوقات والموجودات، وإدراك للمحسوسات، وتطلع إلى الغيب تأتي كلها مصورة تصويراً فنيا في قصص مختلفة، منها، الخيالي ومنها الميثي ومنها الديني، تساهم جميعاً بقسطها في تقديم الفكر ومظاهر تطوره ورسم ملامح المخيال وعناصره الفاعلة)[٥٦].

وإبرازاً لتعدد مجالات المتخيلّ الديني كصانع للروايات يقرر هشام جعيط: بأن أحداث السيرة النبوية (تقارب الحقيقة ولو على وجه الخيال في نسجها لحياة متماسكة معقولة للنبي، بالرغم من التناقضات)[٥٧]؛ أي أنها -ببساطة- تمثّلٌ لخيال الرواة حول حياة نبيهم.

ويرى محمد حمزة بأن (الحديث النبوي في نهاية الأمر تمثّلٌ لما استوعبه المحدثون فيما بعد، أو كما فهموه، ففيه جانب كبير من ذات الراوي وثقافته ووعيه، فنقل التاريخ لا يعكس التاريخ كواقع وأحداث)[٥٨].

ورغم إقرار عبد المجيد الشرفي بأن (المحدثين بذلوا جهوداً لا تنكر في التثبت من مدى صحة الأحاديث التي بلغتهم حسبما توفر لهم من وسائل معرفية، إلا أنهم لم يكونوا [حسبه] واعين كل الوعي بأن ما دونوه

---

[٥٣]- المرجع نفسه، ص٨١.

[٥٤]- أين هو الفكر الإسلامي المعاصر، محمد أركون، ترجمة: هاشم صالح، ص١٧٥.

[٥٥]- المرجع نفسه، ص١٨٥.

[٥٦]- العجيب والغريب في كتب تفسير القرآن، وحيد السعفي، دار الأوائل – دمشق، ٢٠٠٦م، ص٣٤

[٥٧]- تاريخية الدعوة المحمدية في مكة، هشام جعيط، ص١٥٢.

[٥٨]- الحديث النبوي ومكانته في الفكر الإسلامي، محمد حمزة، ص٢٤٤-٢٤٥.

إنما هو تمثُّلٌ (Resprésentation) معيَّن للسنة، وليس السنة ذاتها، وهو تمثل فيه ما فيه من التأثر بالثقافة المحيطة، وكيفية المخيلة الجماعية وذاكرة الرواة طيلة عقود عديدة من الزمن)[٥٩].

ويقول الشرفي أيضا: (عملية الجمع والتصنيف والتدوين في حدّ ذاتها عملية اختيار .والاختيار معناه الاحتفاظ بأشياء وإقصاء أخرى، ولا يتصوّر ذلك إلّا بنقد متن الحديث نقدًا ضمنيًا بالوسائل العقليّة، ولو ذهب في ظنّ المحدّث أنّه لا ينقد سوى السند، معدلًا أو مجرّحًا .فما احتفظ به هو ما كان يعكس التمثّل السائد لشخص الرسول في فترة متأخرة عن زمن الوحي وطرأت فيها تحوّلات جذرية إلى حدّ ما، مثلما يعكس إسقاطًا للقيم التي شاعت في أوساط المحدّثين دون سواهم من العلماءِ »[٦٠]

يذكرنا كلام الشرفي هذا بما سبقه إليه أستاذه أركون حين قرر أن إضفاء القداسة على مروياتٍ وأحاديثَ بفعل التكرار المدرسي والورع الجماعي هو السبب في تفشي هذه المرويات وكثرتها، وأن أول خطوة في مسار التوثيق الصارم للسنة يكمن في استبعاد كل ما هو "لاهوتي"[٦١]

فهذه هي أهم المباحث الأنثروبولوجية التي حاولت بعض الاتجاهات المعاصرة توظيفها والاستثمار فيها في مقاربتها للسنة النبوية، والبناء عليها لتفسير تشكل الروايات الحديثية وانتشارها.

المبحث الثالث: نقد توظيف الأنثروبولوجيا في دراسة السنة النبوية:

أولاً: المنشأ الغربي لهذا التوظيف:

مرَّ بنا من قبل قول الدكتور رضوان السيد بأن (الاستشراق كان المصدر الأول للبدايات التأملية الأنثروبولوجية في الشرق الأوسط)، أي أن المستشرقين هم أول من وظف الأنثروبولوجيا في فهم الدين، ومن ذلك بلا شك تفسير نصوصه وطقوسه، ومن هنا نعي أن ما قام به رموز الخطاب العقلاني المعاصر في عالمنا العربي لا يعدكونه استنساخا لما سبقهم إليه المستشرقون والمفكرون الغربيون عمومًا، وليس أبدًا وليد الإبداع الذاتي.

ولنا أن ندلل على هذه القضية بإيراد نصوص لكبار المستشرقين ممن نحى هذا النحو، فلو رجعنا مثلاً إلى من قرر أن كثيراً من الروايات الحديثية ترجع إلى أصل أسطوري، وأنها تسربت إلى المدونة الحديثية كنتيجة

---

[٥٩]- لبنات، عبد المجيد الشرفي، ص١٥٤.

[٦٠]- المرجع نفسه، ص١٨١.

[٦١]- نافذة على الإسلام، اركون، ص٧٦، ٨٠، واللاهوت كلمة مركبة من جزأين تعني علم الله، والمراد بها عند النصارى علوم الإلهيات، أو علوم العقائد، ويقابلها الناسوت: وهي العلوم المتعلقة بالطبيعة والإنسان، وعلم الكلام هو الذي يرادف هذا المصطلح عند المسلمين، ومراد أركون باستبعاد كل ما هو لاهوتي في السنة النبوية، أي: رفض وردُّ كل الأحاديث التي تتناول أمور الغيبيات وما لا مدخل للعقل فيه، كالنصوص النبوية التي تتحدث عن ذات الله وصفاته، وتلك التي تتناول أخبار الجنة والنار والملائكة وأشراط الساعة ... وغيرها.

منطقية تفرضها ضرورات التفاعل الحضاري بين المجتمعات، نجد **"شاخت"** يقول: « ... ولم يكن قصد محمد خلق نظام يضبط به حياة أتباعه، أو وضع أصول هذا النظام على الأقل، بل ظل القانون العرفي العربي القديم الذي تضمن كثيراً من العناصر الدخيلة من رومية إقليمية، وبابلية ويمنية، يسير الإسلام سيره الطبيعي، ودخلت عليه بعض التغييرات لتلائم بينه وبين الظروف الإقليمية للبدو وأهل مكة»(٦٢).

ويؤكد **المستشرق الإنجليزي بيرنز E.W.Barnes**: في كتابه (The Rise of Christanity) «كيف كانت أصول المسيحية – واليهودية من قبلها – عميقة الجذور في تراث الشرق الأدنى من أساطير وخرافات ووقائع، والمؤرخ الذي ينظر إلى الكتاب المقدس وإلى القرآن كوثائق إنسانية قد يطالب المستشرق الذي يجادل عن دعوى الأصول اليهودية المسيحية للإسلام بأن يدقق في الملاحظة والتأمل ثم يبدي ما يتضح له من انعكاسات»(٦٣).

كما أن النظرية الأنثروبولوجية التي تحيل نصوص السنة النبوية إلى الماقبليات الدينية والثقافية حاضرة بقوة في كتاباتِ عدد من المستشرقين وأعيان الفكر الغربيّ، ويوظفُ هؤلاء تلك النظرية في الطعن في النبوة من أساساها؛ حيث ينسبون هذا الاقتباس – من الماقبليات الدينية والثقافية – إلى الرسول نفسهِ؛ فيتهمونه بأنه تلقَّف ما جاءت به التوراة والإنجيل من العقائد والأحكام والآداب والفضائل؛ ثم مزجها بجملة من القيم والأعراف الاجتماعية التي كانت معروفة لدى العرب، ثم نسب ذلك كله إلى الوحي الذي ينزل عليه(٦٤).

يقول جولدسيهر: «هناك جمل أخذت من العهد القديم والعهد الجديد وأقوال الربانيين أو مأخوذة من الأناجيل الموضوعة، وتعاليم الفلسفة اليونانية، وأقوال من حكم الفرس والهنود، كل ذلك أخذ مكانه في الإسلام عن طريق الحديث ... وعن هذا الطريق دخل الإسلام وتسرب إليه كنز كبير من القصص الدينية؛ حتى إذا ما نظرنا إلى الموارد المعدودة في الحديث ونظرنا إلى الأدب الديني اليهودي؛ فإننا نستطيع أن نعثر على قسم كبير دخل الأدب الديني الإسلامي من هذه المصادر اليهودية»(٦٥).

---

(٦٢)– أصول الفقه المحمدي، جوزيف شاخت، ترجمة: إبراهيم خورشيد، وآخرون، ص٥٠.

(٦٣)– نقله عنه الدكتور عبد اللطيف الطيباوي في مقاله الفذ (المستشرقون الناطقون بالإنجليزية ومدى اقترابهم من حقيقة الإسلام والقومية العربية)، ترجمه من الإنجليزية: فتحي عثمان، ص٥٨٦، وأصل المقال منشور في مجلة THE MUSLIM سنة ١٩٦٣م، وهو مطبوع في ملحق كتاب (الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي)، محمد البهي، ص٥٨٦.

(٦٤)– انظر: الاتجاه العقلي في نقد الحديث، لؤي أبو نبهان، ص١٥٥.

(٦٥)– العقيدة والشريعة في الإسلام، جولد سيهر، ص٥١-٥٢.

ويقول أيضا: «ما من أمر يوصف عندهم بالفضل أو العدالة، إلا إذا كان له أصل في عاداتهم الموروثة، أو كان متفقا معها، وهذه العادات التي تتألف منها السنة، تقوم عندهم مقام القانون أو الديانة، كما كانوا يرونه المصدر الأوحد للشريعة والدين، ويعدُّون اطراحها خطأً جسيماً»[٦٦].

ويقول: (لسنا في حاجة إلى إجهاد أنفسنا في البحث كثيراً من أجل أن نسلم توا بإمكان وجود عناصر أفلاطونية محدثة وغنوصية في داخل هذه المادة الخصبة الغنية التي رويت على شكل أحاديث عن النبي، بل الأحرى أن يقال إنه كان مما يثير الدهشة والعجب حقاً، مع ما في الإسلام من خاصية هضم العناصر الأجنبية وتمثلها – أن تخلو وثائق الإسلام الدينية من تأثير الأفكار التي غزت المناطق التي امتد إليها الإسلام وانتشر فيها، تلك الوثائق التي أخذ أصحابها الكثير من الثروة الروحية للوسط الذي هم فيه وجعلوه على صورة أحاديث النبي)[٦٧].

أما "ألفريد غيوم" فقد اشتهر بمقولته: «الإسلام صورة مشوهة للمسيحية»[٦٨]، وكان من أبرز المستشرقين الذين ذهبوا إلى هذا المنحى، حيث يرى: « أن كثيراً من المتون تشابه ما جاء عند اليهود والنصارى واليونان، إلا أن أحداً من المحدثين لم يجرؤ على ردها ؛لأن الأمة كانت قد أجمعت على قبولها ... ومن هنا صار للإجماع سلطة كسلطة المجامع الكنسية، وكل من يخالف الإجماع يرمى بالزندقة والضلال والكفر، حتى صار الإجماع سلطة النسخ، والتمكن من إبطال مفعول نص قراني، أو حديث نبوي»[٦٩].

ويزعم "غيوم" أن جل أحاديث المعجزات منقولة من أناجيل النصارى[٧٠]، كما يدعي أن تقبيل الحجر الأسود له صلة بالعبادات الوثنية، أي «أن الوثنية قد تسللت إلى الإسلام؛ لأن كل العالم الذي كان يحيط بالإسلام كان يكتظ بالوثنيين، ومما لا شك فيه أن الأحجار والأشجار والأصنام، وينابيع المياه، والآبار كانت مقدسات الوثنيين؛ لأن منهم من كانوا يعتقدون أنها مساكن آلهتهم.. .ومما لا شك فيه أيضاً: أن

---

[٦٦]- المستشرقون ومصادر التشريع الإسلامي، عجيل النشمي، ص٨٢. وانظر: المستشرقون والسنة النبوية، سعد المرصفي، ص٣١.

[٦٧]- العناصر الأفلاطونية والغنوصية في الحديث، أجنتس جولد سيهر، ترجمة: عبد الرحمن بدوي ضمن (التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية دراسات لكبار المستشرقين)، ص٢١٨.

[٦٨]- المستشرقون الناطقون بالإنجليزية ومدى اقترابهم من حقيقة الإسلام والقومية العربية، عبد اللطيف الطيباوي، ملحق بكتاب (الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار) لمحمد البهي، ص٥٨٦.

[٦٩]- الإسلام، غيوم، ص٩٤-٩٧، نقلا عن (من افتراءات المستشرقين حول أساليب المحدثين في العناية بمتون الأحاديث)، عزية علي طه، لحث منشور في مجلة البحوث الإسلامية، الصادر عن الرئاسة العامة لإدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، السعودية، عدد:٣١، ٣١/٢٨٣-٢٨٤.

[٧٠]- المرجع نفسه، ص٤٩.

هذه المعتقدات تتنافى مع فكرة توحيد الإله الذي توجه إليه محمد صلى الله عليه وسلم بعد معرفته لليهود وديانتهم، لكن نبي الإسلام لم يستطع أن يتخلى عنها كلها، وفضل التمسك ببعضهما استمالة لعبدة الأوثان؛ لأنه كان يأمل أن يناصروه ويؤيدوا دعوته»[٧١].

وإن كان "غيوم" قد وجَّه تهمة الاقتباس إلى النبي ﷺ مباشرة؛ فإنه كذلك لم يبرئ المسلمين من هذه الجريرة، لا سيما مسلمة أهل الكتاب من الرواة، فنجده تحت عنوان: (تأثير اليهود على الديانة المحمدية) يذكر أن نشاط اليهود الواسع في التجارة وخبراتهم بالزراعة جعل العرب يتأثرون بهم، فكبر اليهود في أعين العرب، وذلك مما أدى إلى تسرب بعض القصص الدينية اليهودية إلى الديانة الإسلامية»، ثم يؤكد هذا الزعم بقوله: «لقد كان هناك يهوديان ينحدران من أصل يمني، وهما اللذان لعبا دوراً كبيراً في شرح وتفسير القرآن والسنة»[٧٢].

ويقول المستشرق"موريس سيل": «لم يتوقف النقل عن أهل الكتاب عند حد شرح الحديث فقط، بل إن بعض أفعال عيسى وأقواله قد تسربت إلى سنة المسلمين، ونسبت إلى محمد صلى الله عليه وسلم»[٧٣].

في حين يقرر"جيمس نورمان أندرسون" في كتابه (ديانات العالم القديم) بأنه «لا يمكن أن يكون هناك شك على أية صورة، أن محمداً قد تمثل أفكاراً من التلمود وبعض المصادر المحرفة، أما بالنسبة للمسيحية فإن هناك احتمالاً طاغياً بأن محمداً قد استمد إيحاءه منها»[٧٤].

ونجد أمثال هذه المزاعم تتردد كذلك في كتابات **"ستويرت"**[٧٥]،و"فيليب حتي"[٧٦].

---

[٧١]- الإسلام، غيوم، ص٧٥ نقلاً عن (من افتراءات المستشرقين على أحاديث التوحي)، عزية علي طه، ص٢٤.

[٧٢]- الإسلام، غيوم، ص٧٥-٨١، نقلا عن (المرجع نفسه)، ص٢٤.

[٧٣]- الديانة الإسلامية، موريس سيل، نقلاً عن (من افتراءات المستشرقين حول أساليب المحدثين في العناية بمتون الأحاديث)، عزية علي طه، بحث منشور في مجلة البحوث الإسلامية، الصادر عن الرئاسة العامة لإدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، السعودية، عدد:٣١، ٢٨٣/٣١.

[٧٤]- انظر ما نقله الدكتور عبد اللطيف الطيباوي في بحثه (المستشرقون الناطقون بالانجليزية)، ملحق بكتاب (الفكر الإسلامي) لمحمد البهي، ص٥٩٨.

[٧٥]- انظر ما نقلته عنه الدكتورة عزية علي طه في كتابها (من افتراءات المستشرقين على أحاديث التوحيد)، ص٢٦-٢٧.

[٧٦]- الإسلام والغرب، فيليب حتي، نقلا عن: من افتراءات المستشرقين على أساليب المحدثين في العناية بمتون الأحاديث، عزية علي طه، بحث منشور في مجلة البحوث الإسلامية، ٢٨٣/٣١.

أما نسبة المرويات المتعلقة بالمعجزات والغيبيات إلى مخيلة المسلمين في عصور الرواية، فهي في حقيقتها استنساخ لنظرية الفيلسوف الفرنسي " أرنست رينان" في نقده للنصوص المسيحية؛ وهي قائمة على إرجاع مجمل الفصول المتعلقة بحياة المسيح إلى صناعة خيال الأجيال النصرانية الأولى[٧٧].

ويعدّ "رينان" من أبرز من أثار هذه القضية عند تعرضه لنصوص الإنجيل ومعجزات المسيح، حين رفضها مبررا ذلك بأنها نتاج للمخيال المجتمعي للأجيال النصرانية الأولى، أما ما تعلق بنصوص الإسلام (السنة على وجه الخصوص)؛ فالتهمة بأنها اختلاق نابع من الخيال القصصي للرواة حاضرة بجلاءٍ في كتابات بعض المستشرقين أمثال:" جون وانسبرو[٧٨]"، "فريديرك كيرن"[٧٩]، و"باتريشيا كرونه[٨٠]"[٨١].

فالحاصل أن هذه النظرية ليست نتاج دراسة موضوعية ومحايدة قام بها منظرو الخطاب العقلاني المعاصر في دراستهم للسنة النبوية؛ ولا هي خلاصةٌ لبحث مبدعٍ ومضنٍ، إنما هي تقليد بحت للمستشرقين؛ سواء في

---

[٧٧]- وذلك في كتابه: (The Life of Jesuse) (حياة يسوع) وانظر: جهالات وأضاليل نقض افتراءات عبد المجيد الشرفي على السنة النبوية، سامي عامري، ص٢٧.

[٧٨]- اشتهر المستشرق جون وانسبرو John Wansbrough بنظريته التي تنص على أن القرآن تطور بشكل تدريجي خلال القرنين السابع والثامن الميلاديين، وأنه قد جمع خارج الجزيرة العربية، في منطقة قريبة من بلاد الشام، واعتبر الروايات الشفهية التراثية اللاهوتية (والتي تشكل الأحاديث النبوية جزءًا كبيرا منها) نتاجاً لمخيلة رواتها، وأصّل لنظريته تلك في كتابه الشهير (دراسات قرآنية). انظر: القرآن وشبهات المستشرقين، صلاح حسن رشيد، مقال منشور في صحيفة (الحياة) اللندنية بتاريخ: ٢٥ تشرين الأول ٢٠١٣م.

[٧٩]- فريديريك كيرن Friedrich Kern: مستشرق ألماني ولد سنة ١٨٧٤م تعلم في جامعات لوزان وفيينا وبرلين، سافر إلى القاهرة أين أتقن العربية، وألف رسالته للدكتوراه بإشراف فولرز، توفي سنة ١٩٢١ عن سبعة وأربعين سنة، من مؤلفاته: نشره لكتاب (اختلاف الفقهاء) للطبري مع مقدمة ضافية باللغة العربية، و(الأحاديث الموضوعة)، و(تاريخ البوذية في الهند) . انظر: تاريخ الآداب العربية، لويس شيخو، ص٣٣٤، والمستشرقون، نجيب العقيقي، ٧٢٩/٢، وموسوعة المستشرقين، عبد الرحمن بدوي، ص٤٧٢.

[٨٠]- انظر كتابها (الهاجريون Hagarism) الذي ألفته بمعية المستشرق "مايكل كوك"، والذي يعتبر من أبرز ما ألّف في التشكيك بصحة المدونة الإسلامية (القرآن والسنة النبوية)، وأسس للنظرية الهاجرية حول تشكُّل الإسلام في القرن الأول الهجري. والكتاب ترجمه نبيل فياض. وللاستزادة حول خلاصة ما تضمنه كتاب (الهاجريون) ينظر: الإسلام المبكر ... الاستشراق الإنجلوسكسوني الجديد، باتريسيا كرون ومايكل كوك أنموذجا، للباحثة التونسية آمنة الجبلاوي، ضمن "منشورات الجمل".

[٨١]- انظر: جدل المتخيل واللاهوتي من محمد اللاهوتي إلى محمد التاريخي، حمود حمود، مقال منشور في مجلة (الأوان) بتاريخ٢٠١٠/١٢/٢١م،

نقدهم للنصوص الإسلامية أو النصوص المسيحية واليهودية، وهو تقليد لا يمكن تفسيره إلا بكون أصحاب هذا التيار مأسورين بنتاج الفكر الغربي، وهو كذلك دالٌّ على مدى الاستلاب والتبعية.

وبعدَ كلِّ هذا؛ فإن النهل والاقتباس من المجال المعرفي الغربيِّ ليس مستغرباً إذ إنَّ تعظيم العقل وجعله حاكماً على النَّقل، وردِّ النصوص الدينّية لمجرد توّهم المعارضة بينها وبين دلالته هو مسلك نشطَ فيه المعتزلة قديما، وبعض المستشرقين يرى أن أكبر مصيبة ابتلي بها المسلمون هي القضاء على المنزع العقلي في نقد الوحي عبر قمع الاعتزال، والتمكين للمحدّثين في تثبيت رأيهم بتقديم النقل على دلالات العقول[٨٢].

ثانياً: أيهما أسبق: الأسطورة أو الوحي؟

تقوم فكرة نسبة جملة منه النصوص الدينية – ومنها الحديث النبوي – إلى الأساطير القديمة، على التماثل النسبي الواقع بين بعض هذه الأساطير وبين ما ورد ذكره في نصوص الوحيين، واعتمادًا على هذه الفكرة أنكرَ كثيرٌ من الملاحدة واللادينيين فكرة الأديان أساساً[٨٣]، وأرجعَ منكرو السنة وخصومها – بدورهم –كلَّ النصوص النبوية المتناولة لأخبار الغيوب – الماضية والمستقبلية – (كقصة الخلق، وآدم وحواء وإخراجهما من الجنة لأكلهما من الشجرة، وخبر طوفان نوح، وذكر الجنة والنار، .. وما أشبه

---

[٨٢]– الإشادة بالمنزع العقلي للمعتزلة مسلك شائع عند المستشرقين، وأبرز من تحمس له من المستشرقين المعاصرين المستشرق الفرنسي "جاك بيرك" في ترجمته المشهورة للقرآن الكريم إلى الفرنسية، حيث أقحم فيها بعض آرائه حول العلمانية وحرية المرأة وتمجيد الديمقراطية والعقل ... وغيرها، ودافع فيها عن طرحه في كون القرآن الكريم عظَّم العقل وأعطاه الأولوية في مراتب الإدراك والاستدلال، وانتقد محاربة بعض المسلمين للمنزع العقلي في قراءة النصوص عبر قمع الاعتزال. انظر: إعادة قراءة القرآن، جاك بيرك، ترجمة: وائل شكري، تقديم: أحمد صبحي منصور. وانظر أيضا كتابه: العرب من الأمس إلى الغد، ترجمة: على سعد. وانظر نقداً لطرحه في: من معارك الاستشراق ضد المصحف الشريف .. ترجمة "جاك بيرك" بين المادحين والقادحين، إبراهيم عوض. و(إشكاليات ترجمة معاني القرآن الكريم)، محمود العزب. وانظر أيضاً: دور الحديث في تشكيل المجال الفرقي، عادل عبد الله، مقال منشور في مجلة (أوان)، بتاريخ: ٢٠١٠/٠٤/١١م

[٨٣]– من أشهر الدراسات التي ترجع الأديان إلى الأصول السومرية، بناءً على الآثار التي خلفتها هذه الآثار؛ كتاب (من ألواح سومر) لصامويل كريمر، فمثلا عند كلامه عن طوفان ننوحٍ عليه السلام – وهو حقيقية دينية جاء ذكرها في الكتب السماوية كلها–، يقول كريمر: «صرنا متأكدين الآن من أن قصة الطوفان التي وردت في التوارة لم تكن في الأصل من وضع مدوني أسفار التوارة، وذلك منذ أن اكتشف "جورج سمث" الذي كان يشتغل في المتحف البريطاني اللوح الحادي عشر من ملحمة "جلجامش" وحل رموزه، ولكن قصة الطوفان البابلية بدورها سومرية الأصل » انظر الكتاب بترجمة: طه باقر، مراجعة وتقديم: أحمد فخري، ص٢٥١.

ذلك) والتي تشبه في بنيتِهَا بعضَ الماقبليات الأسطورية القديمة؛ أرجعوها إلى تلك الماقبليات مبرِّرين ذلك بأن الرواة المسلمين هم من نسبوا هذه النصوص إلى السنة النبوية.

والجواب عن هذه الطرحِ إجمالاً، يكون بالجواب عن السؤال الآتي: أيها أسبق: الأديان أم الحضارات؟ ومن الذي استلهم من الآخر؟

إن التشابه المحدود بين بعض ما ورد في الأساطير القديمة وبين ما تضمنته نصوص الوحيين؛ يدلُّ على أن الوحي سابق للأسطورة، وأن الحضارات الضاربة في القدم عرفت بعثة رسلٍ وأنبياء يدعونهم إلى عبادة الله تعالى.

وقد دلَّت نصوص القرآن على أن الله لم يخْلِ قوماً ولا أمةً من رسولٍ يدعوهم إلى التوحيد، وينذرهم الشرك، ويقيم عليهم الحجة، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦]، وقوله عزَّ وجل:﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ [فاطر: ٢٤]، وقوله:﴿ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾ ﴾ [سورة الرعد:٠٧]، وقوله جلَّ ذكره:﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [المؤمنون: ٤٤]، وقوله تبارك وتعالى: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ ﴾ [الإسراء: ١٥] ... وغير ذلك من الآيات. قال ابن تيمية – بعد أن ساق أمثال هذه الآيات الكريمات -: «فقد أرسل الله قبل المسيح رسلاً كثيرين إلى جميع الأمم»[٨٤].

ويروى أن النبي ﷺ سئل: كم عدة الأنبياء ؟ قال: ﴿مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً، الرسل من ذلك ثلاثمائة وخمسة عشر، جماً غفيراً﴾[٨٥].

وفي رواية أن رجلاً سأله: يا رسول الله أنبياً كان آدم؟ قال:﴿نعم﴾، قال: كم كان بينه وبين نوح؟ قال: ﴿عشرة قرون﴾. قال: يا رسول الله كم كانت الرسل؟ قال: ﴿ثلاثمائة وخمسة عشر﴾[٨٦].

---

[٨٤]- الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، أحمد ابن تيمية، ت: علي بن حسن وآخرون، ٢/٢٣٠.

[٨٥]- أخرجه أحمد في (المسند)، ٣٦/٦١٩، والطبراني في (المعجم الكبير)، ٨/٢٥٨، وأبو نعيم في (حلية الأولياء)، ١/١٦٧، عن أبي ذر ﷺ. قال الهيثمي في (مجمع الزوائد)، ١/١٥٩: «ومداره على علي بن يزيد وهو ضعيف».

[٨٦]- أخرجه أحمد في (المسند)، ٣٦/٦١٩، وابن حبان في (الصحيح – إحسان)، ١٤/٦٩، والطبراني في (المعجم الكبير)، ٨/١١٨، والحاكم في (المستدرك)، ٢/٢٨٨، عن أبي أمامة ﷺ. وقال الحاكم: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجه»، ووافقه الذهبي، وقال الهيثمي في (مجمع الزوائد)، ٨/٢١٠: «رواه

فدلّت الآيات والأحاديث – آنفة الذكر – أنَّ جميع الأمم منذ أن خلق الله الجنس البشري عرفت مجيء رسلٍ يدعونهم إلى التوحيد، وهذا سارٍ على جميع الحضارات الماضية كالسومريين[٨٧]، والبابليين والمصريين القدامى ...وغيرهم[٨٨]، وهذا كله هو ما يفسرّ الرسوم والرموز التي وجدت في آثارهم ومساكنهم، والتي تحكي مجيء رسل بأوامر من السماء، وتصف الملائكة بأنها ذوات أجنحة، وترسم رموزاً لآدم وحواء، وهي بذلك تقارب التفاصيل التي حكتها الكتب السماوية: التوراة والإنجيل والقرآن.

كما أنَّ الإجابة عن التساؤلات الآتية قد يجلي هذه القضية أكثر: ما سبب بزوغ هذه الأفكار المتعلقة بالخلق والمعاد والملائكة والجن والشياطين في جلّ الحضارات القديمة المنتشرة في مشارق الأرض ومغاربها رغم اختلاف أزمانها وتباعد أماكنها؟! ألا يدفع هذا إلى القول بوحدة مصدرها؟! رغم ما طال هذه الأفكار والأخبار والشرائع من تحريف وتزييف وتبديل.

فالحقيقة أن "ما يشبه" الذي جاء به الوحي مما ورد في الأساطير القديمة؛ إنما هو من بقايا شرائع الرسل الذين أرسلوا إلى تلك الأقوام، مع تعديلات كثيرة طرأت عليها نتيجة التحريف والتزييف[٨٩].

وقد ذهب بعض الباحثين إلى أن قوم عاد الذين بعث فيهم نبي الله هود عليه السلام هم السومريون أنفسهم[٩٠]، وهناك آراء أخرى تشير إلى أن يونس وإبراهيم عليهما السلام كانوا رسلاً إلى البلدات

الطبراني، ورجاله رجال الصحيح، غير أحمد بن خليد الحلبي وهو ثقة»، وانظر: (السلسلة الصحيحة)، ٣٥٩/٦.

(٨٧)- السومرية: نسبة إلى "سومر" Sumer بلاد ما بين النهرين السفلى (العراق) بالقرب من الخليج الفارسي، والسومريون هم من استوطن تلك المنطقة، وظهورهم كان قبل الألف الرابعة قبل الميلاد (٤٠٠٠ ق م)، وقد كانت ديانتهم غنية بالمراسم السحرية، وكان لكل مدينة من مدنهم إله يحكمها، وكانت المعابد تحتل المكانة الأولى قبل القصور، وقد خلف السومريون إرثا عظيما تجسد في الآثار التي وجدت جنوب العراق، وتتحدث هذه الآثار عن أحداث عظيمة مطابقة لما ورد في الكتب السماوية كالطوفان – مثلاً-. انظر: معجم الحضارات السامية، هنري عبودي، ص٥١٣، وقصة وتاريخ الحضارات العربية بين الأمس واليوم (العراق والأردن)، هدى بوفرحات، ٢٩/٥.

(٨٨)- وقد ذكر ابن تيمية وغيره أن بني إسرائيل وحدهم عرفوا بعثة ألف نبي، وأن عدة الأنبياء عموماً قد يجاوزون المائة ألف. انظر: الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، ابن تيمية، ٩٩/٢، ٢٣٠.

(٨٩)- انظر: طوفان نوح من الحقيقة والأوهام، إعداد: قسم الدراسات والبحوث بجمعية التجديد الثقافية الاجتماعية في البحرين، ص١٩.

(٩٠)- انظر: العراق في القلب، دراسات في حضارة العراق، علي القاسمي، واقتباسات منه في مقال منشور على موقع: "الجزيرة نت" بعنوان (العراق في القلب)، للكاتب: عبد الحكيم أحمدين، منشور بتاريخ: ٢٠٠٥/٠٣/٠٦م على الرابط: http://www.aljazeera.net/home/print/٩٢٨٠٤٧٩٧-٧٤a٧-٤٦٧٥-b٩١٩-٦٦٨٢٩٩٠f٨cbe/e٩٣ba٦f٨-a٦١٢-٤d٨١-a٢٤٣-٤٥٥faccb٠١ed

السومرية ونذُرًا إلى الأقوام الذين كانوا يعبدون الآلهة في العراق الحالية، وأن السومريين هم نسل من آمن من ذرية نوح عليه السلام، « نزلوا في شمالي العراق قرب جبل الجودي بعد انتهاء الطوفان العظيم، واستقروا فيه في بادئ الأمر، ثم نزحوا إلى جنوب العراق تحت ضغط الأقوام والجماعات المجاورة، وأنشأوا أول حضارة في التاريخ القديم »[٩١]، وهذا يفسر الرسوم والإشارات التي اكتشفها الآثاريُّون جنوب العراق، وفيها صور للملائكة بأجنحة، وفيها أيضاً رسوم توضيحية لمراحل خلق الإنسان من طين، وتتضمن إشارات إلى الطوفان الذي أغرق الأرض[٩٢]، وإلى الجنة والنار، وهبوط آدم إلى الأرض... وغير ذلك مما حكته الكتب السماوية وصحائف أهل الكتاب.

وهذا الجواب يفند هذه النظرية من أساسها، ويبين زيفها ووهاءها، ويظهر بعد هذا البيان أن الأساطير الضاربة في القدم استمدت الكثير من موروثاتها الثقافية من الأخبار والشرائع التي جاءت بها الرسل، وليس العكس، وهذا التقرير يزيل إشكالاً كبيراً حول هذه القضية؛ لطالما اعتمد عليه الملاحدة واللادينيون وأشياعهم من منكري السنة والقرآن في إبطال صحة الوحي.

ثالثاً: شهادات المستشرقين المنصفين حول قدم نشوء الحديث:

القول بأن نصوص السنة النبوية إنَّما هي نتاج للمتخيّل الديني للرواة، أو أساطير قديمة تسربت إلى المدونة الحديثية نتيجة لمعادلة التأثر والتأثير الحضاري؛ إحدى أهم النظريات الأنثروبولوجيا الدينية يصادم ما بات مستقراً في الدراسات الاستشراقية المنصفة من أن الحديث النبوي نشأ في وقت مبكر، فالمستشرق الألماني "هرلد موتسكي" وفي دراسته حول (مصنف عبد الرزاق)[٩٣]، وفي سياقِ رده على دعاوى "جوزيف شاخت" حول نظرية (نشوء الحديث والفقه الإسلامي)[٩٤]؛ أثبت بما لا يدع مجالاً

---

[٩١]- سنن قيام الحضارات وسقوطها قديما وحديثا مقارنة بآراء ابن خلدون، عبد اللطيف بن محمد الحميدان، ص١٥.

[٩٢]- انظر: طوفان نح من الحقيقة والأوهام، إعداد: قسم الدراسات والبحوث بجمعية التجديد الثقافية الاجتماعية، ص١٤، ١٩.

[٩٣]- وهي دراسة شهيرة جداً عنوانها (بدايات الفقه الإسلامي وتطوره في مكة حتى منتصف القرن الهجري الثاني/الميلادي الثامن) وهي في أصلها أطروحة أكاديمية نشرها البروفسور موتسكي باللغة الألمانية سنة ١٩٩١م، ثم ترجمت إلى الإنجليزية سنة ٢٠٠٢م، ونقلها إلى العربية: جورج تامر، وخير الدين عبد الهادي، وصدرت سنة ٢٠١٠م عن دار البشائر الإسلامية. انظر: حوار البروفسور موتسكي مع الدكتور عبد الرحمن أبو المجد والذي نشره الأخير في ملتقى أهل التفسير على الرابط: http://vb.tafsir.net/tafsir٣٦٦٢١/#.VDkzrhY٧_-A. وتضمن الحوار ملخصاً لأهم أفكار الكتاب.

[٩٤]- تتلخص نظرية شاخت في كون الأحاديث المنسوبة إلى النبي ﷺ، لا تحتوي على معلومات موثوق بها عن تلك الفترة الإسلامية الأولى، بل تعكس لنا الآراء التي كانت خلال القرنين الأولين من الهجرة، والنصف الأول من القرن الثالث الهجري. انظر: الرد على مزاعم المستشرقين "جولد سيهر" و"يوسف شاخت" ومن أيدهما من

للشك بأن السنة النبوية كانت حاضرةً قبل نهاية المائة الأولى الهجرية، مستنتجاً ذلك من خلال دراسة مرويات عبد الرزاق الصنعاني (٢١١هـ)، وشيخه معمر بن راشد (١٥٣هـ)، فالطرح القائل بأنه لم يكن هناك وجود للأحاديث إلى بعد القرن الثاني أضحى طرحاً باهتاً جداً من الجهة العلمية، ليس في الأوساط العلمية والفكرية الإسلامية فقط، بل حتى عند المستشرقين المعاصرين والمفكرين الغربيين المحدَثين، إذ إنَّ الدلائل المحايدة كلَّها (الوثائق، المخطوطات، الروايات التاريخية المتواترة ..) تشهد بأجمعها على أن وجود الحديث النبوي قديم جدًا.

وليس "موتسكي" بفريد في هذا المضمار؛ فدراسته مسبوقة باعتراف المستشرق "مارجليوث Margoliouth" في دراسته الشهيرة (البدايات المبكرة للإسلام) بأنه «من الصعب جعل السنة اختراعا يعود إلى زمن لاحق للقرن الأول»[٩٥].

ولسنا بصدد الإثبات العلمي والتاريخي للتدوين المبكر للسنة النبوية، فهذا الموضوع استوفى حقه من البحث، وهو – في نظري –كافٍ في دحض النظرية الشائعة التي تزعم أن السنة ابتدئَ في تدوينها بعد المائة الثانية للهجرة.

المستغربين، عبد الله بن عبد الرحمن الخطيب، بحث مقدم لندوة: عناية المللكة العربية السعودية بالسنة والسيرة النبوية، نظمه مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، ص١٢. ومناهج المستشرقين في الدراسات الإسلامية: النظام والقانون الإسلامي في الدراسات الاستشراقية المعاصرة، سليم العوا، ٢٧٣/١.

وانظر الدعوى نفسها عند المستشرق الألماني "كارل بروكلمان" في كتابه (تاريخ الشعوب الإسلامية)، ترجمة: منير بعلبكي، ونبيه فارس، ص٧١.

ويرى عبد الجواد ياسين أن الحاجة إلى تشريعات جديدة تواكب تطور الحياة الاجتماعية، وكذا الصراعات السياسية والمذهبية التي ظهرت بعد نهاية المائة الأولى أدَّى إلى استحداث نص ديني أكبر حجماً من القرآن، ويكافئه في الحجية وهو الحديث النبوي . انظر: المستشار عبد الجواد ياسين .. الدين أو التدين؟ التفكر من خارج الإطار، حوار أجرته معه مجلة (يتفكرون)، التي تصدرها مؤسسة "مؤمنون بلا حدود"، الرباط، المملكة المغربية، العدد:٠٢، ٢٠١٣م، ص١٠٩.

[٩٥]- The Early Development of Mohammedanism.D.S.Margoliouth.D.LITT. p٩٣ وقد نقلت الترجمة من مشاركة العضو في ملتقى أهل الحديث "صالح الزواوي" على الرابط: http://www.ahlalhdeeth.com/vb/showthread.php?t=٨٧١٧٩

رابعًا: الفرق بين نقل السنة النبوية وبين نقل الأخبار المسيحية واليهودية:

من الحيف المقارنة بين المعجزات المنسوبة إلى المسيح عليه السلام دون أسانيد، وبين تلك التي رواها الأثبات بالأسانيد الصحيحة المتصلة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم.

يقول السيد محمد رشيد رضا: «نقل معجزات نبينا الكونية أضبط وأصح من نقل معجزات المسيح عليهما السلام، لأن لها أسانيد متصلة، أشخاصها معروفون؛ إذ وضع لهم كتب مخصوصة في تاريخهم؛ ولذلك ترى المحدثين يقولون: إن سند هذه المعجزة صحيح، وسند هذه ضعيف، وهذه ثابتة وهذه مكذوبة أو واهية؛ لأن في سندها فلانًا الذي كان يكذب في بعض الأحيان، أو فلان الذي كان كثير النسيان، وليس للنصارى مثل هذه الأسانيد المتصلة»[٩٦].

ويقول أيضاً: «فليأتنا المخالفون بضبط كهذا الضبط وأسانيد كهذه الأسانيد فيما يروون عن رسلهم ومقدسيهم، ثم ليتبجحوا على عامتنا بعجائبهم وغرائبهم. وفرق أكبر من هذا بيننا وبينهم، وهو أنهم إذا عجزوا عن إثبات عجائبهم لا يبقى لهم شيء، ونحن عندنا آيات الله الكبرى (القرآن) والعلم الأعلى من الأمي، وما يتبع ذلك»[٩٧].

ويقول محمد الغزالي: «هذا التراث من الأقوال والأعمال تلقفه المسلمون بعناية، ونقدوه بحكمة، والموازين التي وضعوها لقبول السنن وردها لا تعرف الدنيا أدق منها ولا أعدل.

وقد ردَّ علماءُ المسلمين أحاديث كثيرة نسبت إلى رسولهم، وهذه الأحاديث المردودة لضعف سندها أو متنها، تعتبر أقوى من التراث الديني الرائج بين اليهود والنصارى.

إن "لوقا" روى عن عيسى وهو لم يره، والحديث الذي يروى عندنا بهذه الصفة لا نعترف بقيمته العلمية ولا التاريخية، فكيف يجيء رجل بيته من زجاج أو بيته من خيوط العنكبوت، ليحاول مهاجمة دين حوله سياج من حديد»[٩٨].

خامسًا: تفسير التشابه بين ما جاء في النصوص الإسلامية وبين ما وردَ في النصوص الدينية السابقة:

إن التشابه الموجود بين دلالات بعض النصوص النبوية، وبين ما ورد في الكتب السماوية السابقة — سواءٌ ما تعلق بالإخبار عن ذات الله وصفاته، أو ما ورد في كشف الغيوب الماضية والمستقبلية، أو في وصف معجزاتِ الأنبياء، أو في بعض التشريعات والأحكام - لا يعتبر في حد ذاته مشكلة، ولا يدلُّ

---

[٩٦]- مجلة المنار، محمد رشيد رضا، ٦٨/٦.

[٩٧]- المرجع نفسه، ٧٠/٦.

[٩٨]- دفاع عن العقيدة والشريعة، محمد الغزالي، ٤٩.

على أنَّ الإسلام استلهم هذه القضايا من الأديان الأخرى –كما يقرر المستشرقون –، كما لا يدل – أيضاً – على أنَّ المسلمين الأوائل اقتبسوا ونقلوا ما وجدوه عند اليهودية والنصرانية إلى الإسلام، عبر تسريب نصوصٍ تتحد مع الموروثات الدينية في المحتوى والمضمون، ثم نسبوها إلى السنة النبوية.

بل إن هذا التشابه منطقيٌّ ومفهومٌ؛ لأن هذه الشرائع الثلاثة، متحدة المصدر والغاية، فكلها من عند الله عز وجل[٩٩]، الذي أرسل الأنبياء والرسل إلى أقوامهم برسالة واحدة، وهي الدعوة إلى التوحيد، ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ٢٥﴾ [الأنبياء: ٢٥]، فلا عجبَ – والحالة هذه – أن تتشابهَ بعض معجزات الأنبياء، ولا غرابة أن تقع المماثلةُ بينَ ما جاءت به السنة النبوية وبينَ النصوص التي سلمت من التحريف في كتب أهل الكتاب.

يقول محمد أبو شهبة: «ليس من الإنصاف في شيء أن نقول: إن ما وجد في الدين الإسلامى، ووجد في اليهودية أو النصرانية أن يكون مأخوذاً منها، فقد توافق القرآن الكريم الذى لا شك في تواتره، وصونه عن أى تحريف، والتوراة والإنجيل فى بعض التشريعات، والأخلاقيات والقصص، فهل معنى هذا أنه مأخوذ منها؟ أعتقد أن الجواب بالنفى ... ومما ينبغى أن يعلم أن الشرائع السماوية مردها إلى الله سبحانه، وأن العقائد، والفضائل الثابتة، والضروريات التي لا تختلف باختلاف الأزمان، ولا باختلاف الرسالات أمور مقررة في كل دين. وصدق الله عز وجل: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ﴾ [الشورى:١٣]»[١٠٠].

وتقول الدكتورة "عزية علي طه": «أما الشبهة التي أثارها غيوم حول التشابه بين بعض معجزات رسول الله صلى الله عليه وسلم الحسية والمعجزات النبوية للسيد المسيح عليه السلام في الأناجيل، فيمكن تفسيرها في ضوء الحقائق المعروفة عن الأصول المشتركة لجميع الأديان السماوية؛ لأن هذه الأديان في حقيقة الأمر نابعة من مصدر واحد، وهدفها واحد، وغايتها واحدة، وإن اختلف الأنبياء الذين أرسلهم الله سبحانه وتعالى باختلاف العصور والأزمان. ولقد أثبت القرآن لبعض الأنبياء معجزات كناقة سيدنا صالح وعصا موسى، ومعجزات عيسى كإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله، فلا غرابة إذن أن يؤيد الله سبحانه وتعالى سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم بمعجزات تتوافق مع طبيعة عصره، فإن

---

[٩٩]– هذا طبعا قبل تحريف الكتب السماوية.

[١٠٠]– دفاع عن السنة وردّ شبه المستشرقين والكتاب المعاصرين وبيان الشبه الواردة على السنة قديماً وحديثاً وردها رداً علمياً صحيحاً، محمد أبو شهبة، ص٢٥٣-٢٥٤.

معجـزات الكـبرى هـي القـرآن الكـريم بجانـب بعـض المعجـزات الحسـية الـتي وردت في كتـب السـنة الصحيحة»[١٠١].

ثم إن هـذه المشـابهة بـين مـا جـاء بـه النـبي صـلى الله عليـه وسـلم وبـين مـا جـاء في الأناجيـل والتـوراة، والاعتمـاد عليهـا وحدها لإبطال النبوة، والقول بأن محمدا صلى الله عليه وسلم اقتبس الإسلام بعقائده وشرائعه من الماقبليات الدينية، هو في حد ذاته دليل غير كافٍ «في موضع يحتاج إلى شواهد حاسمة ذات نتائج قاطعة، وهيهات أن تكفي النتف المتقطعة والإشارات والاستدلالات المتعسفة، والتخمينات الذكية في هـذا المقـام فضـلا عـن أي مقـام، ونحـن نحتـاج لخيـال قـوي جـداً لمتابعـة القـول بـأن محمـداً الـذي قـرر الأصول الدينية أنه لم يكن يقرأ أو يكتب؛ كان على التخطيط الذي أنشأه المستشرقون له؛ قد جلس عاكفا في مكتبته يبحث كتب الأولين لينقل عنها، لأجل تأليف الكتاب المعروف بالقرآن»[١٠٢].

هذا .. إضافةً إلى كون الاقتباسات التي يزعم المستشرقون – وبعض رموز الخطاب العقلاني المعاصر- أن محمدا صلى الله عليه وسلم أخذها من الكتب الدينية السابقة، تكون قد حدثت – لو سلمنا بصحة هذا القضية جدلاً- «حين لم يكن هناك ترجمة عربية للكتاب المقدس يقتبس منها»[١٠٣]، فكيف يصح هذا في ميزان العقل والعلم والتاريخ؟!

وفي الأخير؛ فإنَّ هناك أموراً وقضايا أخبر عنها النبي صلى الله عليه وسلم لم يرد ذكر لها في التوراة ولا في الإنجيل، ولا في أيٍّ من الكتب الدينية السابقةِ؛ فكيف يستقيم القول بأن الرسول اعتمد على أسفار اليهود والنصارى في صياغة تعاليم الدين الذي دعا إليه؟!.

فمع التسليم بوجودِ بعض التشابهِ بين النصوص الإسلامية وبين النصوص الدينية السابقة – في المعنى والدلالة – إلا أنَّ التباينَ والتمايز والاختلاف هو الأغلب والأظهر، وهذا جليٌّ لمن لديه أدنى اشتغالٌ بعلم (مقارنة الأديان)، فـ«الدين الذي أتى به محمد ﷺ أوسع أقطاراً وأرحب أفاقاً مما سبقه؛ فكيف

---

[١٠١]- دفاع عن السنة النبوية الشريفة، عزية علي طه، ص٥٤.

[١٠٢]- المستشرقون الناطقون بالإنجليزية ومدى اقترابهم من حقيقة الإسلام والقومية العربية، عبد اللطيف الطيباوي، ملحق بكتاب (الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار) لمحمد البهي، ص٥٨٦. وللدكتور الطيباوي كتاب مطبوع بعنوان (المستشرقون الناطقون بالإنجليزية، دراسة نقدية)، ترجمه إلى العربية الدكتور قاسم السامرائي، الأستاذ بجامعة (ليدن) بهولندا.

[١٠٣]- المرجع نفسه، ص٥٨٧.

يتصور أن يأخذ الغني من الفقير؟! إن التوراة التي في أيديهم اليوم لم تتحدث عن الدار الأخرة، عن الجنان وما فيها من مثوبة، وعن النيران وما فيها من عقوبة، والإنجيل كما هو اليوم عقيدة لا شريعة»[١٠٤].

النتائج والتوصيات

- لفت عناية الباحثين في ميدان السنة وعلومها إلى المسالك الجديدة التي تنتهجها بعض الاتجاهات الفكرية المعاصرة في مقاربتها لقضية النص النبوي، وذلك بتوظيف جملة من المعارف الأجنبية عن حقل الدراسات الشرعية.

- ضرورة العناية بالعلوم الإنسانية بشكل عام، ومحاولة الاستثمار في مباحثها لتثبيت النص الشرعي، وتحويلها من أداة يستعملها الآخر للتشكيك في صحة الروايات الحديثية إلى أداة يستدل بها على موثوقية هذه الروايات.

- توظيف الأنثروبولوجيا في دراسة السنة النبوية، والاستثمار في مباحثها من أجل التشكيك في صحة مصدر النص النبوي، هو توظيف يفتقر للموضوعية العلمية، ويفتقد للأساس العلمي، ذلك أن النص النبوي نقل وفق آليات بلغت الغاية في الدقة، وفق المعايير التاريخية، ولا يمكن إحالته إلى موارد ومرجعيات أخرى اعتمادا على النظريات الأنثروبولوجية مثل: الأساطير، المخيال الديني، والماقبليات الدينية والثقافية.

---

[١٠٤]- دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين، محمد الغزالي، ص٧٨.

The Employment of "Religious Anthropology" in the Study of the Prophetic Sunnah
- Presentation and Criticism –

Dr: Mohamed Ramdhani
Senior Lecturer
Specialty: Sciences of Sunnah
Faculty of Religion Foundations/ Emir Abdelkader University for Islamic Sciences- Constantine-Algeria

Abstract :

The paper deals with the presentation and critical analysis of one of the most important modern methods in the study of the Prophetic Sunnah, which is very frequent in the writings of contemporary rational discourse in the context of the establishment and justification of its intellectual project aimed at (re-criticism and reading the prophetic text).

This method is based on the use of the science of "religious anthropology", which is concerned with the study of human societies and their cultural, social and political patterns, their affection and influence in others, also the major influences on the formation of the religious beliefs of these societies, Especially the religious texts (the prophetic text here) -, by identifying their resources and their tributaries. The contemporary rational discourse tries to invest in the study of this science in the interpretation of the emergence of full sections of Hadith narrations, especially concerning miracles, unseen world, the beginning of creation and the news of previous and latter prophets and nations, And the Hadiths of last day signs as The Antichrist, Djassassa, stories of sedition, clashes, last day... and other issues that its apparent contradicts the evidence of reason and sense.

The most important anthropological sections employed in the study of Sunnah texts can be summarized as follows:

١- Mythology

٢ - The infiltration of former religious elements (Israeli and Christian ...) to the Prophet's Sunnah

٣ - the impact of the cultural precedents that prevailed among the Arabs before Islam

٤ - the influence of religious imagination in the formation of narrations.

The paper aims to study this employment and determine the extent to which it meets the conditions of objectivity, scientific.. and other conditions of scientific research, and the subject is consistent with the main axes of the conference as it studies one of contemporary applications of human sciences in the study of Hadith text.

مراجع البحث

١. الاتجاه العقلي في نقد للحديث دراسة مقارنة تطبيقية، رسالة دكتوراه، لؤي عبد الرحمن أبو نبهان، إشراف: أمين القضاة، نوقشت بكلية الشريعة بجامعة اليرموك، المملكة الأردنية الهاشمية، ١٤٢٦هـ — ٢٠٠٥م.
٢. أساطير العالم القديم، كارم محمود عبد العزيز، مكتبة النافذة — الجيزة، ط١: ٢٠١٠م.
٣. أسباب النزول، بسام الجمل، المركز الثقافي العربي — الدار البيضاء، ط١: ٢٠٠٥م.
٤. الأسطورة والتراث، سيد القمني، المركز المصري لبحوث الحضارة — القاهرة، ط٣: ١٩٩٩م.
٥. الإسلام بين الرسالة والتاريخ، عبد المجيد الشرفي، دار الطليعة — بيروت، ط٢: ٢٠٠٨م.
٦. أصول الفقه، يوسف شاخت، لجنة ترجمة دائرة المعارف الإسلامية، دار الكتاب اللبناني — بيروت، ١٩٨١م.
٧. أضواء على السنة المحمدية، محمود أبو رية، دار المعارف — القاهرة، ط٦، (د، ت).
٨. الأنثروبولوجيا الاجتماعية للأديان، كلود ريفيير، ترجمة: أسامة نبيل، المركز القومي للترجمة — القاهرة، ط١: ٢٠١٥م.
٩. أين هو الفكر الإسلامي المعاصر، محمد أركون، ترجمة: هاشم صالح، دار الساقي — لندن، ط٢: ١٩٩٥م.
١٠. التأثير المسيحي في تفسير القرآن دراسة تحليلية مقارنة، مصطفى بوهندي، دار الطليعة للطباعة والنشر — بيروت، ط١: ٢٠٠٤م.
١١. التراث الإنساني في التراث الكتابي، إشكالية الأساطير الشرقية القديمة في العهد القديم، روبير بندكتي، دار المشرق — بيروت، ط٢: ١٩٩٠م.
١٢. تكوين العقل العربي، محمد عابد الجابري، مركز دراسات الوحدة العربية — بيروت، ط١٠: ٢٠٠٩م.
١٣. جدلية الغيب والإنسان والطبيعة العالمية الإسلامية الثانية، أبو القاسم حاج حمد، دار الهادي — بيروت، ط١: ١٤٢٥هـ — ٢٠٠٤م.
١٤. جهالات وأضاليل: نقض افتراءات عبد المجيد الشرفي على السنة النبوية، سامي عامري، دار البصائر، (د، ط)، ٢٠١٢م.
١٥. الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، ت: علي بن حسن وأخرون، دار العاصمة-السعودية، ط٢: ١٩٩٩م.

١٦. الحديث النبوي ومكانته في الفكر الإسلامي الحديث، محمد حمزة، المركز الثقافي العربي – الدار البيضاء – بيروت، ط:١، ٢٠٠٥م.

١٧. دفاع عن السنة النبوية الشريفة، عزية علي طه، (د، ط)، (د، ت).

١٨. دفاع عن السنة ورد شبه المستشرقين والكتّاب المعاصرين وبيان الشبه الواردة على السنة قديما وحديثا وردها رداً علمياً صحيحاً، محمد محمد أبو شهبة، ويليه الرد على من ينكر حجية السنة لعبد الغني عبد الخالق، مكتبة السنة – مصر، ط:١، ١٩٨٩م.

١٩. دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين، محمد الغزالي، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع – القاهرة، ط٧: ٢٠٠٥م.

٢٠. روح الحداثة المدخل إلى تأسيس الحداثة الإسلامية، طه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي – الدار البيضاء، ط١: ٢٠٠٦م.

٢١. سدنة هياكل الوهم نقد العقل الفقهي البوطي نموذجا، عبد الرزاق عيد، دار الطليعة للنشر – بيروت، ط:١، ٢٠٠٣م.

٢٢. طوفان نوح من الحقيقة والأوهام، إعداد: قسم الدراسات والبحوث بجمعية التجديد الثقافية الاجتماعية في البحرين، دار كيوان – دمشق، ط١: ٢٠٠٩م.

٢٣. العقيدة والشريعة في الإسلام، جولد سيهر، نقله إلى العربية: محمد يوسف موسى وعلي حسن عبد القادر وعبد العزيز عبد الحق، دار الكتب الحديث – مصر، ومكتبة المثنى – بغداد، (د، ت)، ط٢.

٢٤. الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، محمد البهي، مكتبة وهبة – القاهرة، ط٠٤: ١٣٨٣هـ-١٩٦٤م.

٢٥. الفكر الإسلامي في الرد على النصارى إلى نهاية القرن الرابع، عبد المجيد الشرفي، الدار التونسية للنشر – تونس والمؤسسة الوطنية للكتاب – الجزائر، ط١: ١٩٨٦م.

٢٦. الفكر الإسلامي نقد واجتهاد، محمد أركون، ترجمة: هاشم صالح، دار الساقي – بيروت، ط٦: ٢٠١٢م.

٢٧. قاموس أساطير العالم، آرثر كورتل، ترجمة: سهى الطريحي، دار نينوى – دمشق، (د، ط)، ١٤٣٠هـ – ٢٠١٠م.

٢٨. قصة الأنثروبولوجيا، حسين فهيم، المجلس الوطني للثقافة والآداب – الكويت، ضمن سلسلة عالم المعرفة، ١٩٩٠م.

٢٩. قصة وتاريخ الحضارات العربية بين الأمس واليوم (العراق والأردن)، هدى بوفرحات، بيروت، (د، ط)، ١٩٩٨م.
٣٠. قضايا ومناقشات المؤلفات الكاملة، إسماعيل أدهم، تحرير وتقديم: أحمد إبراهيم الهواري، دار المعارف – مصر، (د، ط)، ١٩٨٦م.
٣١. لا إكراه في الدين إشكالية الردة والمرتدين من صدر الإسلام إلى اليوم، طه جابر العلواني، المعهد العالمي للفكر الإسلامي – فرجينيا (و. م . أ)، ومكتبة الشروق الدولية القاهرة، ط٢: ٢٠٠٦م.
٣٢. لبنات، عبد المجيد الشرفي، دار الجنوب – تونس، (د، ط)، ١٩٩٤م.
٣٣. المدخل إلى علم
٣٤. المستشرقون والسنة النبوية، سعد المرصفي، دار المنار الإسلامية – الكويت، مؤسسة الريان – بيروت، (د، ط)، (د، ت).
٣٥. مظاهر الأسطورة، مرسيا إلياد، ترجمة: نهاد خياطة، دار كنعان للدراسات والنشر، ط١: ١٩٩١م.
٣٦. معجم الحضارات السامية، هنري عبودي، جروس برس – طرابلس –لبنان، ط٢: ١٤١١هـ-١٩٩١م.
٣٧. المعجم الفلسفي، إعداد: معجم اللغة العربية، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية – مصر، (د، ط)، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.
٣٨. معجم المصطلحات والشواهد الفلسفية، جلال الدين سعيد، دار الجنوب للنشر – تونس، ط١: ٢٠٠٤م.
٣٩. من ألواح سومر لصامويل كريمر بترجمة: طه باقر، مراجعة وتقديم: أحمد فخري، مؤسسة المثنى – بغداد، ومؤسسة الخانجي – القاهرة، (د، ط)، (د، ت).
٤٠. موسوعة علم الاجتماع، جوردن مارشال وآخرون، ترجمة: محمد الجوهري وآخرون، المجلس الأعلى للثقافة المشروع القومي للترجمة، ط٢: ٢٠٠٧م.
٤١. موسوعة لالاند الفلسفية، أندريه لالاند، ترجمة: خليل أحمد خليل، منشورات عويدات – بيروت – باريس، ط٢: ٢٠٠٢م.
٤٢. نافذة على الإسلام، محمد أركون، ترجمة: صياح الجهيم، دار عطية – بيروت، ط:١، ١٩٩٦م.

٤٣. النص القرآني أمام إشكالية البنية والقراءة، طيب تيزيني، دار الينابيع – دمشق، (د، ط)، ١٩٩٧م.

٤٤. النص والسلطة والحقيقة، نصر حامد أبو زيد، المركز الثقافي العربي – بيروت، ط١: ١٩٩٥م.

٤٥. الهاجريون، باتريشيا كرونه ومايكل كوك، ترجمة: نبيل فياض، ط١: ١٩٩٩م.